الانتحارى والفول

مجموعة قصصية

الناشر

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

إشراف فني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

أحمد صادق

التصميم الداخلي

محمد عبدالفتاح

دار النخبة

33 شارع السنترال - الحي الأول -

مدينة الشيخ زايد - الجيزة - مصر

تليفون: 38511969 - 00202

002 - 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

الانتحاري والفول - مجموعة قصصية

حنان رحيمي

عدد الصفحات: 152

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 16827 / 2017

ISBN: 978- 977- 838- 011- 8

الانتحارى والفـول

مجموعة قصصية

حنان رحيمي

لوحة الغلاف للفنانة التشكيلية اللبنانية العالمية:

مجد رمضان

اسم اللوحة... انتظار غودو

زمن...غير قابل للحب

يا لشهيتك أيها الكوكب

المسكون بالأشرار!!

تلتهم نفسك...

تهلل للدم...للنار

يُثلج قلبك الظلم

يغويك الدمار...

في بيوتك تناحر أزمنة

واندثار

فتبادل النهار والليل الأدوار

غادرتك الشمس

مثقلة بأنفاس سوداء...وغبار

وراحت تهمس للأرض

آواه... لقد ضاع المدار

حنان رحيمي

الإهداء

إلى من رسمت قدري..

وانغرز جمر قدرها في دمي..

فصرخت:

آه ريتا... حتى ارتجف قلب الريح...

إلى من قطعنا معاً

أشواطاً من العذاب

دون أقدام..

إلى من قلبها بحر حياة...

وأيامها موج غاضب...

يرسم أحلاماً فوق الرمال..

سرعان ما يمحوها شاطيء عجوز..

إلى من بدموعها صنعت حبر قلمي..

إليك يا ابنتي ريتا... أهدي كتابي.

مَحبرة الغُربة..

رسالة باللغة الإنكليزية، وجدتها بين رسائل الفايسبوك..

يُدعى صاحبها «جوغو».. مرفقة بصورة لإحدى لوحات معرضها الأخير.. تقول:

– هل تعرفين هذا الرجل الذي رسمتيه في لوحتك؟..

فوجئت بسؤاله.. خفقت ذاكرتها..

كتبت له:

– لماذا تسأل؟.. وما شأنك بالأمر؟

– سيدتي.. الأمر يعني لي الكثير.

– إنها صورة قديمة عندي..أعدت رسمها الآن..

– هل تعرفينه؟.. أقصد من أين أتيت بصورته؟

– مستر جوغو: لما كل هذه الأسئلة؟.. يبدو أنك تريد التسلية... وأنا لا وقت لدي..

– أرجوك، أريد فقط أن أعرف اسمه.

– الرجل يدعى «نجم»..

– نجم سهيل؟..

– نعم.. نجم سهيل!.. هل تعرفه؟

– وأنت هل تعرفينه؟

– إنه عمّي أخو والدي..

– حقاً ما تقولين؟... نجم عمك؟

وما العجيب بالأمر؟.

– إنه.. إنه أبي!!..

– ماذا تقول؟.. عمي «نجم» أبوك؟

– أنا ابنه جوليانو.. عندما رأيت اللوحة شعرت بأن جذوري اللبنانية لا زالت موجودة.. لم تقتلعها الغربة بعد..

الصورة ذاتها معلقة على جدار بيتنا..

جوليانو!!...

قفز الاسم إلى ذاكرتها من خلف خمسة وأربعين عاماً..

***

اسمه جوليانو يا جدتي، جوليانو..

هذا الإسم «الفرنجي» يا ابنتي لا يعرف لساني النطق به.. ماذا أناديه حين يأتي إلينا من الأرجنتين مع والده؟..

آه منك يا ولدي «نجم» ليتك أسميت ابنك «سهيل» على اسم أبيك..

المفاجأة عقدت لسانها.. تشنجت أصابعها فوق أحرف «اللابتوب» ما عاد عقلها ينطق الحروف بمخارجها.. مجرد تمتمات تتراقص فوق شفتيها.

ارتحلت عيناها صوب ذلك الرف القديم بوجوده وأشيائه.

توقف نظرها عند محبرة قديمة فارغة.. عادت ريشتها الجافة لتستيقظ من الماضي البعيد...

***

لأول مرة تطأ قدماها أرض «البوسطة»..

كاد الفرح ان يطيح بعقلها.. فالحلم تحقق!..

الحلم الذي رافقها ليل نهار..

منذ أن وصل خبر من عمها «نجم» الذي هاجر إلى الأرجنتين منذ عشرين عاماً يخبرهم فيه بموعد مجيئه إلى الوطن، وهي تنتظر هذه اللحظة..

لحظة الذهاب لاستقباله على المرفأ مع أهلها.

يوم أتى البوسطجي بالخبر، زغردت جدتها، رقصت بالرسالة.. فتحت كيساً من القماش تخبئه تحت ثيابها، وناولتها عدة قروش من التي كانت تدخرها لليوم الأبيض «حلوان» الخبر السعيد..

راحت تشتري بها الحلوى لرفاقها، من دكان الضيعة وكأنها ابنة حاتم الطائي..

فقد كانت الصلة الوحيدة بين جدتها وعمها المهاجر، تكتب إليه الرسائل عن لسان جدتها منذ أن بدأت «فك الحرف» بعد أن كانت تذهب إلى مختار الضيعة ليكتبها لها..

كل مساء تقول لها جدتها:

- تعالي يا ابنتي لنتحدث إلى عمك..

حديث يومي، تملي عليها أخبار يومها بأدق تفاصيله بالإضافة إلى أخبار الضيعة..

كانت الجدة تشعر وكأن ابنها يسمعها من خلال الورق، تجد الأمر متنفسا لها للتعبير عما يضج في أعماقها من مشاعر الأمومة، ونار الاشتياق لولدها البعيد..

وليلى تكتب واضعة كل قدراتها في الكتابة.. فهناك حكاية من حكايات جدتها الجميلة بانتظارها..

– قولي له يا ابنتي إنه «حشيشة» قلبي، وإن لم يسقها بعودته ستيبس، لن ينفع بعدها لقاء..

قولي له إن عيوني انطفأت من البكاء...

قولي له ان كل طعام يحبه «بتنزل بالزور على بطني»..

قولي له.. قولي له...

فكانت تدفع ثمن سماع حكاية جدتها غالياً لكثرة تكرارها للكلام.. وطوال الأيام التي سبقت موعد وصول عمها من الأرجنتين، لم تعد جدتها تهتم لأمر الرسائل..

شغلها الشاغل أصبح التحضير لاستقباله.. لم تترك زاوية في المنزل إلاّ وأعادت ترتيبها من جديد.. حتى فراش عمها الصوفي، تم ندف صوفه وخياطة قالب قماشي جديد له أوصت عليه جدتها من المدينة.

أمر صارم أصدرته لأفراد العائلة قبل أسبوع من موعد وصوله: «عدم الاقتراب من قن الدجاج ابني نجم يحب البيض بقورما».

الخروف الذي لقمته بيديها حتى سمن، تم ذبحه.. وعاونتها نسوة الحي على فرم لحمه ليتحول بعدها إلى «مسمنة قورما» شهية..

خبزت على «الصاج» كمية كبيرة من الخبز.. «النملية» أصبحت متخمة بالطعام الذي يحبه.. وكأنه لم يذق الطعام منذ رحيله..

- لمَ كل هذا يا جدتي؟

- «يا دلّي إبني نجم بيكون منشف قلبوا من أكل الفرنج»..

***

امتلأت «البوسطة» بأفراد العائلة، والأقارب، والجيران.. البعض لم يجدوا مقاعد لهم، ففضلوا الذهاب وقوفاً طوال الطريق كي لا يخسروا هكذا رحلة تاريخية بالنسبة إليهم..

الكل ارتدى أجمل ما لديه من ثياب، وكأنهم في عيد... وارتدت جدتها فستانها ذو القماش المطبع بالورد الذي لا يخرج من مخبأه إلاّ بمناسبات الأعراس والأعياد...

حملت «الزوادة» في كيس من القماش، مليء بأرغفة اللّبنة والجُبنة والزعتر والتين المطبوخ، كانت قد جهزته بمساعدة والدة ليلى قبل طلوع الصباح.

«أهم شي الزوادة الطريق طويلة وهلأ بنجوع يا بنتي».

ما إن تحركت عجلات «البوسطة» حتى انطلقت الألسنة بالأدعية لأجل الوصول بالسلامة إلى بيروت.. وأكثر دعاء لم تتوقف «أم نجم» عن تكراره:

ان يتوقف موج البحر لحين وصول الباخرة التي تُقل ابنها، لاعتقادها أن الموج خطر على الباخرة.. والكل يردد وراءها: آمين..

ثم يصدح صوتها الشجي "بالعتابا" كلمات مغلّفة بالشوق والحنين تُدمع القلب... وساد جو من البهجة، وارتفعت الأصوات بالغناء الجميل، الكل يعبر عن فرحته بما يحفظه من أغاني وأشعار.. وسط التصفيق والهرج والمرج..

"البوسطة" أيضاً شاركت ركابها فرحتهم.. فكانت تتراقص على الطرقات الترابية والمنعطفات القوية المطلة على أودية مخيفة..

أصيبت ليلى بالرعب.. "ماذا لو تزحلقت "البوسطة" وسقطت في الوادي؟.. وشعرت بدوار شديد وألقت رأسها إلى كتف جدتها التي لم تكن تفارقها:

ارتعبت الجدة صارخة: "يا ويلي راحت البنت من بين إدينا، وجهها أصفر متل الزعفران"..

علا صوت والدة ليلى مؤنِّبة: "قلت لكِ لا تأتي معنا، أعرف أنكِ لن تتحملي مشقات الطريق ولكنك عنيدة. إياكِ والجلوس إلى جهة الشباك، أفهمت؟".

***

وصلت «البوسطة» الى المرفأ، كانت الباخرة قد وصلت، والناس متجمهرة لاستقبال أحبائهم العائدين من وراء البحار، إلى أرض الوطن..

ابتعدت ليلى عن أهلها قليلاً.. نظرت حولها مذهولة، غير مصدقة ما هي فيه.. أحلامها تحققت في يوم واحد.. يا له من يوم سعيد!..

رأت المدينة والبحر.. شاهدت الباخرة الضخمة التي كانت تراها في الصورة وكأنها نقطة سوداء في البحر، فاذا بها تتسع لأهل ضيعتها وبيوتهم معاً... وأيضا بعد قليل سترى عمها نجم.

فجأة رأت والدتها متجهة نحوها سحبتها من يدها وهي تبكي وتولول.

ماذا حصل؟.. الجميع يبكون..!!

جدتها افترشت الأرض.. وصوت نحيبها غطى ضجيج المكان:

– وينو إبني يا بحر.. وينك يا روح إمك ليش ما جيت؟.. شو صاير معك يا نور عيوني؟..

– يا خوفي يا ابني تكون وقعت من الباخرة.. حرقت قلبي يا نجم..

– يا بحر يا غدار، أخدت إبني من عشرين سنة، ليش ما رديتو؟.. آخ يا بحر الغربة.. أخدت الغالي وما تركتللي غير الملح.

***

لم يأت الغائب.. اسمه على لائحة الركاب، ولكنه غير موجود على متن الباخرة..

صراخ البهجة التي يطلقها من يستقبلون أحبائهم أضفت على عائلة «نجم» المزيد من الحرقة والدموع.

ومضة أمل لاحت في بال الجدة الحزينة، هرعت إلى أحد رجال الدرك وقالت له:

- «دخيلك يا ابني فتشوا منيح بالباخرة يمكن يكون ابني «نجم سهيل» غاطس بالنوم وما انتبه.. بعرفوا منيح.. ابني نوموا تقيل»..

***

كانت ليلى ملتصقة بجدتها حين تناهى إليهم صوت رجل يسأل عن أهل «نجم سهيل».

انتفضت «أم نجم» وكأن أفعى لسعتها:

- «نعم أنا أم نجم.. دخيل إجريك يا إبني بتعرف شي عن إبني نجم؟.. وينوا؟.. ليش ما اجا؟؟.

قال الرجل:

- «إبنك بخير.. وأرسل لك معي هذه الأمانة».. وناولها كيس صغير.

– «الله يبشرك بالخير..انت شفتوا؟.. صحتوا منيحة»؟..

تجمهر أفراد العائلة حول الرجل.. وانهال عليه سيل من الأسئلة...

– أين نجم؟.. هل هو بخير؟.. هل رأيته؟.. لماذا لم يأت؟.

قال الرجل: قبل انطلاق الباخرة بوقت قصير سمعت رجلاً أجنبيا يسأل عن الركاب المسافرين إلى لبنان.. فسألته بلغة بلاده التي اتقنها عن سبب سؤاله فقال انه يريد إرسال أمانة إلى لبنان. فقلت له: أنا اوصلها وأخذت منه الأمانة والعنوان. وقال لي: عندما تصل الى مرفأ بيروت اسأل عن أهل «نجم سهيل» فهم سيكونون هناك لاستقباله. أنا اعمل معه، كان المفروض يكون ضمن ركاب الباخرة، ولكن ظروف عمله منعته من السفر»..

غمرت جدتي الكيس، ضمته إلى صدرها وهي تشهق بالبكاء: «يا عيون أمك يا نجم.. كنت ناطرة ضمك لقلبي وشمشمك.. ضميت الكيس مطرحك»..

كان في الكيس شال صوفي، ورسالة، وصورة ، ومبلغ من المال، ومحبرة...

حملت الصورة تقبلها: «يا نجم عمري..ما أجملك»..

ورفعت الشال إلى وجهها ودموعها تبلله: «آه يا ابني بعتتللي الشال يغمرني مطرح إيديك؟»..

رغم قساوة الموقف، كان كل انتباه ليلى مشدوداً إلى المحبرة، شعرت أن روحها تعلقت بها:

«ترى لمن أرسل عمي المحبرة؟.. جدتي لا تحتاجها... يا ليتها تكون لي».

كان فحوى الرسالة سلامات وتحيات لكل فرد من العائلة... وكلمات لأمه تعبر عن اشتياقه لها وحنينه إلى الوطن.. ووعداً بأنه سيأتي قريباً مع زوجته الأرجنتينية وابنه جوليانو.. حال تسمح له ظروف عمله التي منعته من المجيء.. رضاك ودعواتكِ يا أمي، أقبل يديك وقدميك، سامحيني على غيابي الطويل عنك، أخذتني الحياة ونسيت نفسي....

وختم رسالته بكلمات جعلت ليلى تقفز فرحاً: ابنة أخي الغالية ليلى... أحبك كثيراً يا «عمّو» وأكثر ما يسعدني ويفرح قلبي الرسائل التي تصلني بخط يدك.. أسلوبك في الكتابة وخطك الجميل، يدلان على موهبة فذة.. واظبي على دروسك، واتوقع لك مستقبل باهر.. وهذه المحبرة لكِ يا ليلى، اكتبي لي رسائل بحبرها، وسأجلب لك معي حين آتي من السفر محبرة أخرى وأقلام ودفاتر جميلة.. لكِ سلام من إبني جوليانو..».

***

عادت من غربة محبرتها الجافة لتسأل سؤالاً بقي علامة استفهام في أعماقها وأعماق من رحلوا من عائلتها مدة خمسة وأربعون عام:

- جوليانو.. هل عمّي على قيد الحياة؟..

- نعم يا ليلى لا يزال حياً روحاً، لكنه ميت جسداً وعقلا.

- ماذا؟...

أتى الجواب بسرعة على شاشة الكمبيوتر.. صورة لرجل عجوز على كرسي متحرك.. مرفقة بعبارة:

- هذه صورة أبي.. مصاب بالشلل، فاقد للنطق والذاكرة.

- عمي الحبيب.. ما الذي أصابه؟.. وكيف؟.. ومتى؟..

- سألها: هل نستطيع التحدث صوتاً يا ابنة عمي؟..

- بالتأكيد يا ابن عمي..

- ذلك اليوم.. منذ خمسة وأربعون عاماً، قرر أبي السفر إلى لبنان لرؤية أهله الذين فارقهم منذ عشرين سنة، حجز تذكرة السفر على الباخرة وأرسل لأهله يعلمهم بالأمر، وكان يعد الأيام بانتظار اللحظة التي يصعد فيها إلى الباخرة...

قبل أيام من موعد سفره، كنت برفقته في جولة على الأسواق لاستكمال شراء ما ينقصه من حاجيات السفر والهدايا.

دخلنا أحد المحال التجارية، فجأة رأينا صاحب المحل يضرب شاباً يعمل عنده.. وسمعنا صوت الشاب يوجه للرجل شتائم بلهجة لبنانية..

انه لبناني!..

أبي لم يحتمل المشهد، رابط الدم والأرض دفعه للدفاع عن الشاب بشراسة.. فهجم على الرجل في محاولة لإبعاده عن الشاب، فما كان من الرجل إلاّ ان وجه لأبي شتيمة بشعة للبنان واللبنانيين..

عاجله أبي بلكمة قوية على وجهه.. أضاعت صوابه وحولته إلى وحش، فأمسك بأبي وأخذ يضرب له رأسه بالحائط ثم قذفه أرضاً، فسقط على شيء صلب.

في المستشفى قال الأطباء إن حالته غير مستقرة، ويجب أن يبقى في المستشفى تحت المراقبة إلى حين انتهاء الفحوصات اللازمة للرأس.. وأيضاً ليأخذ القانون مجراه في الحادث تجاه المعتدي.

آلام الرأس الشديدة إلى درجة الغياب عن الوعي، لم تفارقه.. وجاء تقرير الأطباء: نزيف داخلي في الرأس ويجب أن يخضع لعملية جراحية لأن حياته في خطر!..

وكان موعد العملية باليوم الذي تنطلق فيه الباخرة إلى لبنان.. كاد يجن، حاول الخروج من المستشفى عنوة..

بكى كالأطفال.. فجأة عاد الى هدوءه.. طلب قلماً وورقة، بدأ الكتابة بيد واليد الأخرى يشد بها على رأسه من الألم، نظر إليّ وكانت الدموع تغطي وجهه قائلا:

– أشعر أنها آخر رسالة أكتبها في حياتي يا ولدي.

استدعى شاب أجنبي يعمل معه، أعطاه الرسالة ومبلغ من المال وصورة كانت في محفظته، ولائحة بأسماء عدة أشياء طلب منه شراؤها، والذهاب بالأغراض والرسالة إلى مرسى الباخرة، وإرسالها مع أي مسافر لبناني.

أجريت العملية، وللأسف لم تكن ناجحة، خرج أبي بعدها من المستشفى على كرسي متحرك.. وأخذتنا هموم علاجه والعناية به أنا وأمي حتى فقدت لذة الحياة وذاكرة الحنين إلى الوطن.. حتى الرسائل التي كانت تصلنا منكم لم نكن نفتحها، ولا زلت احتفظ بها.

كلام جوليانو صعقني...

امتدت يدي إلى المحبرة، كانت ممتلئة بالجمر، امتد لهيبها إلى روحي، إلى ذاكرتي.. الى جدتي:

مسكينة يا جدتي.. قضيتِ بقية عمرك تعيشين في الوهم، تقتاتين اللوعة والحسرة، ويقتاتك الشوق والحزن.. تنتظرين الصباح علّه يأتيك بخبر عن الغائب..

كانت عيناكِ دائماً معلقة بالأفق البعيد تتوسل السماء خبراً عن جزء ضاع من روحك التي ما سكنت يوماً عن محاكاة من هم خلف البحار إلاّ حين وافتك المنية.

لم يفارق شال عمي كتفيكِ صيفاً شتاءاً.. عشت بقية عمركِ تلثمينه وتشتمين رائحة ابنك منه لاعتقادك أن عليه لمساته.. وكانت وصيتك أن يدفن الشال معك..

يا محبرة الغربة التي سال حبركِ دموعاً وأنينًا كل هذه السنين.. على رسائل لم تجد عيناً تقرأها ولا قلباً يسمعها... جفت شراييكِ بانتظار الغائب ليملؤكِ من جديد.. ولكن القدر أطفأه وحول الكلام إلى رماد.

***

السَاحِرة

- ماذا تفعلين هنا يا سيدة؟.. ألم تجدي مكاناً تنامين فيه سوى مدخل البناية؟..

كانت ملتفة على نفسها بجانب جدار المبنى، متكئة على حقيبة صغيرة بجانبها، ملثمة بشالٍ صوفيّ، يخفي نصف وجهها، وترتدي ثياباً مزركشة فضفاضة.

قالت له بصوت مثقل بالنعاس والتعب: كما ترى.. أحتمي من الهواء البارد ومن المطر.

قال متهكماً: يبدو أن نهارك في التسول كان متعباً..

انتفضت واقفة، تحدجه بنظرة ساخرة، قائلة بانفعال: أنا لست متسولة، وحتى لو كنت كذلك، فهل ابتلعت لك قطعة من جدار المبنى حين أسندت ظهري إليه؟..

حملت حقيبتها وسارت.. بعد خطوات استدارت قائلة: مبارك عليك هذا الحائط.. لا تنس أن تحمله معك عندما تموت..

وأردفت غاضبة: اللعنة عليكم من بشر رؤوسهم من إسمنت، كهذا الحائط.

بقي الرجل يرقبها مستغرباً وقاحتها، لكن الدهشة بدت على ملامحه: جمالها، ثيابها، كلامها، جرأتها..

دفعه الفضول أن يستمهلها قبل أن تختفي عن عينيه: يا امرأة.. هل أستطيع مساعدتك بشيء؟..

أجابت بسرعة وهي ترتجف من البرد: نعم.. أريد عملاً..

- ماذا تستطيعين عمله؟..

- ألعاب بهلوانية وألعاب خفة.. أتسلق على الحبال كالقرود.

قطع الرجل كلامها بضحكة عالية: أنتِ خفيفة الظِّل ..

شعرت أنه لم يصدق كلامها.. فلم تدعه يسترسل في سخريته.. بل أخرجت من حقيبتها منديلاً صغيراً ناولته إياه وسألته: ما هذا؟.

أجابها: طبعاً.. منديل.

- إذن أنظر جيداً ما سيحصل..

وضعت المنديل في كف يدها وأطبقت عليه.. ثم نفخت على يدها وفتحتها.. فإذا بالمنديل قد اختفى..

أدهشه ما رأى: حقاً إنك ساحرة!.. ثم قال بكل جدية: أين تسكنين؟..

- حالياً أسكن في الشارع.. لا مأوى لي؟..

- أين أهلك؟

- لا أعرف.

- هل هناك أحد لا يعرف أين أهله؟..

- نعم.. أنا..

فكر ملياً، إنها حالة غريبة قد تلفت نظر ابنه.. فقرر المغامرة:

- هل تعملين عندي؟.. وساعطيك غرفة تنامين فيها...

رمقته بنظرة فاحصة، لتتأكد من نواياه: وما هو نوع العمل؟..

- ستعملين مهرجة.

- مهرّجة؟..

- نعم.. كل المطلوب منك أن تقومي بتسلية ابني المريض بأسلوبك المرح، وكلماتك التي تبعث الابتسامة، وألعابك السحرية هذه..

كل هدفي في الحياة ابتسامة ابني الوحيد.. فإن نجحتٍ سيكون لك راتب محترم ومأوى.

قالت في نفسها: «حقا عرض مغرٍ، وأنا التي كنت أعتقد أن الحظ أقفل أبوابه في وجهي»..

تمتمت: عمل، وراتب جيد، ومأوى!.. هل حقاً لست بحلم!..

سألته: مما يعاني ابنك يا سيدي؟

- هيا لنصعد إلى السيارة فالبرد قارص.. ونكمل حديثنا أثناء الطريق..

- وهذا المبنى الذي سألتني عن سبب جلوسي عند حائطه، أليس فيه سكنك؟

لا.. مكتبي هنا.. تعالي.. تعالي.

كان السائق بانتظاره.. شعرت ببعض الاطمئنان لوجوده.

أخبرني عن ابنك يا سيدي- قالت له:

أجاب بتنهيدة عميقة: حادث سير منذ عشر سنوات، أودى بحياة زوجتي، وأصيب ابني الوحيد إصابة بالغة في ظهره.. لم ينفع معه أي علاج، لا هنا ولا في الخارج. وأصبح مقعداً يعاني من حالة يأس شديدة.. يرفض الحياة، دائماً يحاول الإنتحار، عجز معه الأطباء النفسيين.

شعرت بالخيبة.. يبدو أن مهمتها صعبة جداً أمام هذه المأساة.. وربما لن تنجح، وستعود لواقعها المرير.

فقالت: وماذا يمكنني أنا أن أفعل بعد أن عجز الأطباء؟..

- رأيت فيكِ نقطة أمل، شعرت معها أنكِ تستطيعين فعل ما عجزوا عنه، وهو ليس بالكثر.. كل ما أريده منكِ ابتسامة ترتسم على وجه ولدي، تبدين خفيفة الظل مرحة.. ستعملين على تسليته بألعابك وحركاتك..

لكن إنتبهي!.. عليك ان تجعليه يرتاح لوجودك منذ أول لقاء. أعرفه جيداً، فهو إن نفر من شخص في أول لقاء به سوف لن يتفاعل معه بعدها أبداً.. فقد مررت بتجارب كثيرة من هذا النوع.

– سأحاول، وسأبذل جهدي كي يتقبلني في لقائنا الأول.. عساني أسعده وأدخل السرور على قلبك وقلبه.

***

فيللا فخمة.. كل ما فيها يبهر الأنظار من أثاث وتحف غريبة وديكور.. ولكن نظرها لم يتوقف عند أي شيء، فقد كانت عيناها تبحثان في المكان عن الابن الذي يحلم أبوه أن يراه مبتسماً..

بحثت في عقلها عن طريقة تكسب بواسطتها ثقة الشاب وتلفت نظره إليها.. كي تبعد عنها شبح العودة إلى الضياع والتشرّد.

وشاهدته.. شاب وسيم، رغم عبوس وجهه، طويل الشعر.. التفت اليها ثم أشاح بوجهه وكأنه لم يرها..

عرفت أنها أمام امتحان صعب، ولكن عليها أن تنجح بأية وسيلة كي لا تعود من حيث أتت.. فقررت التحدي والبدء بالتجربة فوراً.

اقتربت منه بوجه باسم قائلة: مرحبا.. اسمي كيكي.. وأنت ما اسمك أيها الشاب الجميل المقطب الحاجبين؟..

انتظرت أن يبتسم لكلامها ولكنه صرخ بوالده: بابا.. بابا.. من أتى بهذه المجنونة إلى هنا؟.. خذها من هنا فوراً، لا أريد خدماً جدد.

فوجيء الرجل بتفاهة تصرفها، شعر أنه أخطأ حين أتى بها: "كم أنا غبي.. أتيت بمجنونة إلى بيتي، لا تعرف كيف تتصرف".

وجه إليها كلامه غاضباً: كيف تتكلمين مع شادي بهذه الطريقة؟.. هل أنت مجنونة؟.. ألم أنبهك من قبل؟

– كنت أمازحه.. تباً لي، فليأخذني الله.. فأنا لا أعرف كيف أتخلص من عادة المزاح اللعينة هذه.

ابتسم الرجل لكلامها رغماً عنه قائلا: تفضلي.. سيوصلك السائق إلى حيث كنت.

خفق قلبها هلعاً.. "إنها الليلة الثانية التي ستنام فيها بالشارع!.. هيا يا كيكي لا يجب أن تفشلي.. ماذا أصابك؟..أنسيت أن مهنتك إضحاك الناس!.. إنها فرصة ذهبية.. كوني قوية، الأمر يستحق العناء، استخدمي عقلك ومهاراتك فورا!"..

اقتربت من شادي وقالت بصوت باكٍ: وداعاً يا صديقي..

ثم سارت عدة خطوات باتجاه الباب، مطأطئة الرأس.. وفجأة استدارت بحركة سريعة مضحكة، وجلست أرضا أمام كرسيه المتحرك قائلة:

– لن أتزحزح من هنا يا سيد شادي، حتى لو دهستني بعربتك.. حتى لو جاءت كل العصافير.. أخذت (تزقزق).. ولو أتت كل الحيوانات من قطط وكلاب وحتى أفاعي (تقلد مواء القطة وعواء الكلب).. وحتى لو استعنت بالبوليس (تقلد صوت صافرة سيارات الشرطة) وكل هذا بطريقة متقنة..

وبنفس الوقت تراقب تقاطيع وجهه شادي.. لاحظت انفراجها بعض الشيء.. فشجعها ذلك على المضي بالامتحان: اختر أي حيوان وأنا أقلد لك مشيته وصوته الآن.

بقي صامتاً.

– ما رأيك بالقرد؟..

لم تنتظر جوابه، فقفزت إلى كرسي في مقابله، وكومت جسمها فوقها ووضعت يديها على جانبي الكرسي، وأخذت تلوح جسدها بلياقة بدنية نادرة لا يتقنها إلا أبطال الرياضة.. وسط ذهول شادي ووالده.

ثم أخذت موزة من الهواء وراحت تقشرها، ثم جوزة هند تكسرها ويندلق ماءها عليها..

كل هذا تمثله بإتقان وكأنه حقيقة بين يديها..

اقتربت من شادي وهي تقفز قفزاً وسألته: هل أعجبتك السيدة قردة؟..

أجاب وابتسامة خجولة على وجهه أبت الظهور أمام حزن عينيه: ليتني قرد يسير ويقفز كما يريد.. ليتني نملة، على الأقل لها قدمين.

أدمع قلبها بكلامه.. لم تشعر إلا وعاطفتها تجتمع على شفتيها في قبلة على وجه شادي.. قائلة:

الحياة لا تحتاج إلى قدمين لتسير، بل إلى روح تنشد الحياة. يمكنك أن تحب الحياة بفكرة تدور في رأسك.. ليس كل الحياة قدمين.. ها أنت رأيتني كيف استطعت أن أمارس أشياء كثيرة وأنا على الكرسي..

انتبهت إلى إشارة من والد شادي أنه يريد أن يكلمها.

حدق إليها وكأنه يراها لأول مرة.. فتاة جميلة سمراء الوجه يشع الذكاء من عينيها..

قال لها: نتيجة ممتازة يا ابنتي.. لقد كلّمك وأفضى إليك بما يشعر به.. شادي لا يعبر عن شعوره لأحد حتى أنا.. أسلوبه في التعبير عما بداخله هو نوبات عصبية، وصراخ، وتحطيم كل ما تستطيع يده الوصول إليه..

ما قمتِ أنتِ به عمل جميل، لا يقدر أن يقوم به أيٍ كان.. وهذا أمر مشجع يعطيني الأمل بأنك ستنجحين مع شادي.. والآن أخبريني عنكِ، وما سبب نومك في الشارع؟..

– سيدي.. أنا إسمي كريمة، يلقبونني "كيكي".. مهنتي إضحاك الناس خاصة الأولاد من خلال تقديم عروض للألعاب السحرية والحركات البهلوانية.. تعلمت هذه المهنة من أبي..

شعرت بغصة في حلقها عند ذكر والدها جعلت الكلمات تخرج من بين شفتيها كالجمر، فاختلج صوتها بالألم.

وأردفت: نحن نعيش في الطبيعة.. نقصد المناطق البعيدة.. نقدم ألعابنا في ساحات البلدات النائية لقاء بعض المال.. ليس لنا مكان محدد نسكنه، فنحن دائمي الترحال.. بيوت الأسمنت لا نعرفها، فبيتنا خيمة ترافقنا أينما ذهبنا..

بعض البلدات كان أهلها يعتبروننا ضيوفاً.. يهتمون بنا، لجهة الطعام والمنامة..

أبي كان بارعاً في سرد الحكايات والخبريات التي تبهج الحضور.. يخبرهم قصصاً من تجاربه ومغامراته بأسلوب طريف ذكي.. فقد كان رجلاً خفيف الظل، يزرع البسمة أينما حلّ وفي أحلك الظروف..

– وكيف كنتم تواجهون تقلبات الطقس؟..

– أبي كان لديه خبرة بجغرافية الطقس.. يعرف جيداً طبيعته في كل منطقة.. فكنا نحدد مسيرنا على هذا الأساس.

– يا لها من حياة قاسية عليكما، فيما تقدمان المتعة للآخرين!!

– نمط الحياة هذا رغم قسوته صقل روحي وأعطى قلبي وجسدي قوة غريبة، فلم نعرف الطبيب يوماً.. نستخدم الأعشاب البرية في علاج أي وعكة صحية تصيبنا..

كنت أتسلق الأشجار العالية، أقوم بعروض بهلوانية على الشجر، أقفز من غصن إلى آخر بخفة القرد، وسط صراخ ورعب المتفرجين.. دربني أبي على هذه الخفة، فقد كان لاعب سيرك في شبابه.

سَحَره كلامها، كان يصغي إليها وكأنه طفل يستمع إلى حكاية جدته..

قال: أكملي.. أكملي كلامك يا ابنتي.. لماذا أنتِ لوحدك في المدينة وبلا مأوى.. أين والدك؟

جوابها كان دموع غزيرة، تسللت إلى سلسال ذهبي متدل من عنقها...

***

– يليق بكِ الذهب يا ابنتي.. مبارك عليك هذا السلسال الجميل.. كلما امتلأت "قجة" والدك الساحر "جوهر" سنحولها إلى قطعة ذهبية تتزينين بها وتبيعينها وقت الحاجة، فأنتِ لا زلتِ صغيرة ولا تعرفين غدر الزمان..

– كلامك يا والدي "جوهر" جوهر الكلام.

كانا يجلسان على مقعد قبالة البحر:

– الله يا كيكي.. ما أروع هذا المنظر الساحر، منذ زمن بعيد لم أشاهد غروب الشمس في البحر، ولم أتجول في شوارع المدينة.. أشعر اليوم وكأنني عدت شاباً، الحياة تسللت إلى أوصالي الهَرِمة من جديد. الفضل يعود إلى السلسال الذي سيحمل ذكرى هذا اليوم الجميل إلى الأبد.

– أطال الله في عمرك أيها العجوز المتصابي.

ضحك لكلامها قائلا: سأبقى شاباً رغم أنفكِ ايتها الشيطانة.

– سنرى يا والد الشيطانة..

– انظري كم هو البحر شاسع، كان حزني قبل أن أعرفكِ بوسع البحر، كنت حينها أعيش فجيعة موت ولدي الذي سقط أثناء قيامه بعرض على الحبال في السيرك.

حدق بها ملياً وأردف: تلك الليلة التي عرفتك فيها لا تمحى من خيالي، حين هاجمتك الكلاب التي كانت تحرس خيمتنا، وكنت أنتِ هاربة من مأوى للأيتام..

"مأوى الأيتام"!..

رعدة سرت في بدنها.. اجتاحها الندم والاحساس بالذنب.. "لقد كذبت عليك يا أبي!.. كيف سأنظر إلى وجهك بعد الآن؟.. يا لي من كاذبة.. كان يجب أن اعترف لك منذ زمن بعيد.

بخجلٍ تمتمت له: سامحني يا أبي، لقد كذبت عليك حينها، خفتُ أن تعيدني إلى أهلي إن قلتُ لك الحقيقة، إنها الكذبة الوحيدة في حياتي..

انتفض غاضباً: ماذا تقولين!.. أنتِ لك أهل!..ولست يتيمة؟.. أربعة عشر عاماً وأنا أعيش في الوهم.. هذا يعني أنني إنسان غبي مفغل!. إرتكب جريمة سرقة فتاة من اهلها.. كيف خدعتيني يا ابنتي؟..

– أرجوك لا تغضب يا أبي، اسمعني جيداً.. أنا حقا يتيمة الأبوين.. ماتت والدتي، تزوج أبي، كانت زوجته تحبني لكن حين أصبح عندها أولاد كرهتني، وعندما مات أبي في حادث عمل ازدادت كراهيتها وسوء معاملتها لي.. ذلك اليوم أتى إلى البلدة مجموعة من الأشخاص يقومون بألعاب سحرية مقابل مبلغ من المال لمن يريد الفرجة.

توسلت لزوجة أبي، قبلت يديها: أرجوكِ اِعطني بعض المال لمشاهدة هؤلاء السحرة.. أولاد الحي كلهم سيذهبون.

– لن تذهبي.. يقال إن هؤلاء يسرقون الأولاد..

– لا تخافي فأنا لست لوحدي.

– قلت لكِ لن تخرجي من البيت، ولا مال معي.. ما كان ينقصني إلا أن أعطيك المال للتسلية وإخوتكِ بالكاد يشبعون الخبز.

– أين مال أبي؟.. كان لديه مبلغ من المال قبل أن يموت..

صفعتني بقوة: اخرسي يا وجه الشؤم.. صرفت المال عليك وعلى إخوتك.

قلت لها والصفعة زادتني عناداً: لن أخرس، اعطني من مال أبي..

اتجهت نحو الباب وضحكة كريهة على وجهها قائلة: أنا ذاهبة للفرجة على السحرة.. انتبهي لإخوتك، أفهمت؟.

أقفلت الباب بالمفتاح خلفها وذهبت...

كدت أموت من القهر والغيظ، بكيت على نفسي، كيف سأعيش مع هذه المرأة الظالمة!.. إلى من ألجأ!.. لم أعرف يوماً أحداً من أقارب أبي وأمي، وحين كنت أسأل أبي كان يجيب:

«أنا يتيم يا ابنتي لا أهل لي.. وأهل أمك لا أعرف عنهم شيئاً منذ أن تزوجتها عنوة وغضبوا عليها».

خطرت لي فكرة أراحت تفكيري وقررت أن أنفذها. سأذهب إلى هؤلاء السحرة إذا كانوا لا يزالون في القرية، وأتوسل إليهم أن يأخذونني معهم.. طالما هم يسرقون الأولاد فليسرقونني، وإن لم أجدهم سأهيم على وجهي، وسيظن الجميع أنهم سرقوني، وبسبب كره زوجة أبي لي لن تبلغ أحداً.. لن أبقى في هذا البيت.

عادت زوجة أبي ونامت.. تسللت هاربة من المنزل.. أنعشني نسيم الليل المشبع برائحة الخريف.. كان ضوء القمر ينثر نوره بخجل..

تسللت من النافذة إلى ساحة البلدة فوجدتها خالية.. لقد رحلوا!.. سرت تحت جنح الظلام بلا هدف.. كدتُ أموت من الخوف ولكني قاومته وأسرعت الخطى، لا بد من المخاطرة!..

أضواء خافتة لاحت لي من بعيد، جعلت وجهة سيري صوب المكان، فربما أجد من التجىء إليه.. وما كدت اقترب من الضوء حتى ارتفع نباح الكلاب وأحاطت بي كالوحوش الضارية..

رق قلب العجوز فقال بحنان: يا حبيبتي يا أبنتي كم تعذبت.. لا أنسى تلك الليلة!.. حين رأيتك ملقاة على الأرض والدماء تسيل من رأسك.. كدت أموت من تأنيب الضمير لأن كلابي هي السبب.

واردف ممازحاً: ايتها الكاذبة ليتني تركت الكلاب تأكلك.. الآن فهمت سبب إصرارك على تقديم عروض مجانية في الأماكن الفقيرة.

أمسكت يده وقبلتها: يا أبي الحبيب.. منذ عرفتك وأنت أكثر من أم وأب.. قدمت لي حياة سعيدة، أدخلتني المدرسة، علمتني اسرار مهنتك، وكيف أكون إنسانة مختلفة، وقوية.

قطع عليهما حديثهما بائع البوشار.. اشترى العجوز كيسين.. ناول ابنته كيساً وبدأ الأكل من الكيس الآخر..

سرعان ما علت ضحكته: كم أنا أبله وغبي، نسيت أنه ليس لدي أسنان..

عَلَت ضحكاتهما حتى طغت على صوت الموج الذي كان يرتطم بالصخور القريبة.

قالت له: يجب أن نذهب، بدأ الظلام يحل.. تأخرنا يا أبي وطريقنا بعيدة.

– دعينا نتنشق هواء البحر قليلاً، فلا نعلم متى نعود مرة ثانية إلى هنا.. علينا انتظار "القجة" حتى تمتليء من جديد.

اقترب منهما بعض الأطفال المتسولين، فقال لهم ضاحكاً: يا أولادي.. لم يبق معي إلا أجرة الطريق، فإن أعطيتكم إياها سأصبح مشرداً مثلكم.

ثم همس لابنته: ما رأيك نقدم لهم ما يضحكهم عوضاً عن المال؟..

– بالتأكيد يا أبي.

بدأ العجوز القيام بحركات بهلوانية.. يقفز بخفة شاب بالعشرين، فعمله أكسبه لياقة جسدية كبيرة.. وتجمهر المارة حوله وأصاب بعضهم الحماس، فأخذوا يقلدونه وسط التصفيق والهتاف.

فجأة انتبه قائلا: أسرعي يا كيكي، داهمنا الوقت وقد ننام في الشارع.

استقلا سيارة أجرة أوصلتهما إلى حيث موقف الحافلات.. كان العجوز صامتاً طوال الطريق..

صعدا إلى الحافلة التي كانت على وشك الانطلاق، حاول العجوز الصعود لم يستطع.. بدا عليه الخمول والتعب على غير عادته..

ساعدته وقلبها يطير هلعاً: ما بك يا أبي.. منذ قليل كنت تقفز كالريشة؟..

ابتسم بوجه شاحب: تقصدين أنني كنت أقفز كالقرد.

- تبدو متعباً.. وجهك لا لون فيه.

- لا تخافي، يبدو أنني هرمت دون أن أدري، إنه تعب النهار..

صوت المسجل في الحافلة يصدح بقصيدة "رباعيات الخيام" لأم كلثوم:

سمعتُ صوتاً هاتفاً في السحر

نادى من الغيب، غفاة البشر

هبوا املأوا كأس المنى

قبل أن تملأ كأسَ العمر كفُ القَدر

نظرت إليه رأته نائما.. ألقت برأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها مستمتعة بكلمات القصيدة الخالدة.. وغلبها النوم.

يد هزتها بعنف: أيتها الشابة.. هل العجوز معك؟..

فتحت عينيها مذعورة: نعم.. نعم إنه أبي ..

نظرت إلى جانبها لتجد رأس والدها متدليًا إلى جانب المقعد.. وبعض الركاب يعدلون جلسته دون فائدة.

- أبي.. أبي ما بك؟..

سمعت صوتاً مريعاً: كان الله في عونك.. والدك في ذمة الله..

حاولت أن تصرخ لم تستطع، أخذت تضرب وجهها ورأسها بيديها دون وعي..

قال بعض الركاب: اهدأي قد يكون مغمىً عليه..

وكأن روحها عادت إليها: نعم.. نعم مغمى عليه.. أعرف أبي جيدا، لن يرحل ويتركني وحيدة.

صرخت بالسائق: اسرع أرجوك إلى أقرب مستشفى.

قال السائق: نحن الآن في طريق مقفر.. لا بيوت ولا مستشفيات.. حالما نصل إلى وسط البلدة سنجد طبيباً.

انبرى أحد الركاب، وكان يتفحص العجوز قائلاً بنبرة قاسية: أنا أعمل منذ زمن طويل في "براد" مستشفى، وأعرف وجوه الموتى كما أعرف نفسي.. . العجوز لا نبض فيه لقد مات وشبع موتا.

صمتت أم كلثوم، فكأس القدر قد امتلات بالدموع..

***

عادت من ذاكرة الألم بشهقات مخنوقة من البكاء خجلت أن تطلقها أمام الرجل: مات أبي منذ فترة قصيرة.. تركني وحيدة، تائهة

في حياة غريبة عني لا أعرف عنها شيئا، وكأنني كنت أعيش في عالم آخر.. اشتغلت في بعض الأماكن وتعرضت للمضايقات من رجال كالوحوش.. والآن أنا مشردة.

– تشبهين شادي، فهو أيضا قضى عشر سنوات لا يعرف من الحياة سوى الألم.

– سأعلمه معنى الحياة الحقيقية ويعلمني الصبر على الآلام.

أشار إلى أحد الخدم للاهتمام بأمر الفتاة .

دخلت الغرفة التي خصصها لها، غرفة جميلة، ومجهزة بكل وسائل الراحة.. أول ما بحثت عنه النافذة، هرعت اليها وشرعتها، ووقفت تتنفس هواء الليل المنعش رغم برودته.. ومن حسن حظها أن الغرفة تطل على حديقة خلابة.

***

استيقظت صباحاً على صراخ قوي وصوت أشياء تتكسر.. هرج ومرج يعمان المكان..

شادي على كرسيه الكهربائي، يجول في أنحاء البيت بسرعة قصوى، يصرخ، ويحطم كل ما تصل إليه يده..

والده والخدم يحاولون تهدئته دون جدوى.

بيده تمثال صغير من الخشب يهدد به من يقترب منه.

وقفت حائرة، كيف تتصرف أمام هذا الموقف المؤلم؟..

سألت الخادمة التي بدا عليها عدم الاكتراث للأمر: ما به السيد شادي؟.. ولماذا يفعل هذا؟

– اعتدنا على هذه الحالة.. يصاب بالجنون لعدة ساعات ثم يهدأ لوحده، لقد اتعبنا جميعاً هنا.. إنه يرفض الحياة، لا يريد أن يعيش.. دائماً يهدد بقتل نفسه.. حاول الانتحار منذ فترة، ونحن في حالة استنفار دائمة لمراقبته.. حتى الدواء يرفض أن يأخذه فنضطر أن ندسه له في الطعام.. ولكن الليلة نام ولم يتناول عشاؤه الذي يحتوي على الدواء.

اقتربت منه بكل هدوء، انحنت أمامه: هيا اضربني إذا كان الأمر يسعدك.. هذا رأسي أمامك، حطمه بالتمثال.. أنا وحيدة، ليس عندي في الدنيا من يحزن على غيابي أو موتي.. ولكن أنت!.. انظر حولك وسترى محبة الآخرين لك.. هيا اضرُبْ!.. أرحني من هذه الحياة.. ماذا تنتظر؟.

توقف شادي عن الصراخ.. حدق في الفراغ.. رمى التمثال جانباً.. غطى وجهه بيديه وبكى..

– تعال معي أيها المشاغب.

دفعت العربة واتجهت إلى باب الحديقة.. .

– لا.. لا اتركيني لا أريد الخروج إلى الحديقة.. سأعود إلى غرفتي.

عادت أدراجها إلى حيث رمى التمثال، رفعته قائلة: اقسم بلحية جدي «أبو شنب» الذي مات منذ مئة سنة، بعد ان التهم رطلين من العنب.. إن لم تخرج معي ساقتل نفسي وأنت ستتحمل المسؤولية وتكون السبب.

سيأخذك البوليس، وسيعلقونك على المشنقة.. «آه يا كيكي الوداع».. وأخذت تمثل البكاء الشديد: «آه يا جدي أبو شنب يا من أكلت التين والعنب.. افتح يديك، كيكي آتية اليك، بعد أن ضربها شادي ورماها بالوادي».

أطلق شادي ضحكة عالية قائلا: يعلقونني على المشنقة!!.. فكرة رائعة.. أتخيل نفسي معلقاً في الهواء..

لكن لا تنسى، إن علقوك في الهواء ستكون مثل السعدان الذي أكل المور والجوز بالأمس وأنت تتفرج عليه..

تابع ضحكته بتكتم، وخرجا إلى الحديقة.

أدمعت عينا والد شادي فرحاً لما رآه من فعلها وردة فعل ولده. فقد مزقت روحه هذه المعاناة المستمرة.

قالت كيكي: ما رأيك يا سيد شادي بكوب عصير.

لم يجب.. بل كان يحدق فيها بصمت... فلم تنتظر جوابه، طلبت من الخادمة كوبا عصير.

- انتظرني.. لحظة وأعود...

هرعت وكأنها تذكرت شيئاً هاماً، عادت تحمل في يدها علبة سجائر قائلة: ما رأيك ان نتسلى ببعض الألعاب السحرية؟

- سحر؟.. كيف؟

- نعم سحر.. ألا تعلم بأنني كيكي الساحرة!..

- ساحرة؟!..

سأضع هذه السيجارة المشتعلة بشعرك.. وسترى كيف ستختفي.

ارتعب:

- يبدو أنك مجنونة.. أريد العودة إلى غرفتي.

- لا تخف، أنت رجل، فهل يخاف الرجال؟.. إنها لعبة خِفّة لا تؤذي.

- وهل هناك ما أخاف عليه؟.. أنا لست رجلاً، ولا وجود لي في الحياة، أنا مجرد جسد محطم، أجزاؤه مهترئة.. قدماه عجلات عربة، ينتظر أيدي الآخرين لتحركه.

تجاهلت كلامه المؤلم كي لا يستفيض بمشاعره أكثر.

- كما تريد يا شادي.. ولكني سأجربها أمامك مع عاملة المنزل.. هل توافق؟..

- ولكن إن آذيتها سيكون لأبي تصرف معك..

– اتفقنا يا «نرفوز»..

جاءت العاملة.. طلبت منها أن تأتي بكل من يعملون بالفيللا، السائق، والحارس، وعامل الحديقة، والخدم..

– هيا إذن استعد لتتعرف على كيكي الساحرة.. انظر إلى السيجارة.

أشعلت سيجارة.. رأى الجميع دخانها المتصاعد وجمرتها المتأججة..

اقتربت من الخادمة التي كانت ترجف من الخوف ووضعت السيجارة المشتعلة في شعرها..

كانت حواسه متوقفة عند يدها.. انتظر انبعاث الدخان من شعر الخادمة، ولكن لم يحدث أي شيء.. لا هي في شعر الخادمة ولا هي في يد كيكي.

– أين ذهبت السيجارة؟.. أنتِ كاذبة، كرريها مرة ثانية.

كررت اللعبة من جديد مع عاملة أخرى.. وشادي يشتد ذهولًا.

– أنتِ حقًا ساحرة!.. أريد أن أعرف اللآن كيف تفعلين هذا؟...

– لا أستطيع أن أخبرك.. إنه سر المهنة، لا نبوح به لأحد.

– أنا لست أحداً، ألم تقُولي إنكِ صديقتي؟..

كل هذا كان يرقبُه الأب من مكانه في الشرفة المطلة على الحديقة وعيناه تترجم سعادته بما يراه من ردة فعل ولده..

- هل تعدني أن يبقى الأمر سراً بيننا؟

قال بسرعة: طبعاً وأقسم بلحية جدك «أبو شنب»..

ارتفعت الضحكات حوله.. ضحك معهم وهو يجول بعينيه على وجوههم الناظرة إليه بدهشة، فَهِمَ أن ضحكاتهم ليس على ما قاله بل لأنها المرة الأولى التي يُضحكهم حيث كان يبكيهم..

سأعلمك، ولكن أنا الآن جائعة.. سأتناول سندويش وأعود بسرعة..

- لا تذهبي سنتناول الفطور هنا..

ذهل الوالد غير مصدق عينيه.. ابنه يتحدث، ويضحك، ويشرب العصير أيضاً.. ويتناول الطعام في الحديقة، وهو الذي لا يتناول طعامه ودواءَه إلا بعد جدال وعذاب..

هذه الفتاة ساحرة وأكثر، إنها هدية من السماء... كم من مرة حاول إقناعه بالخروج إلى الحديقة دون جدوى.. سافر به إلى أجمل بقاع الأرض تنفيذاً لأوامر الأطباء، ولكنه كان يبقى ضمن جدران كآبته.. قدم له كل ما يمكن أن يفرح الإنسان ورغم ذلك لم يضحك.. والآن شادي يضحك من كل قلبه..

علمته كيكي لعبة السيجارة ونجح تماماً بتنفيذها، فأخذ يهتف سعيداً وينادي والده: بابا .. بابا.. تعال وتفرج.. أصبحت ساحراً.

اليوم موعد تنفيذ خطة جديدة مع شادي..

قالت له كيكي: أشعر بالضجر، ما رأيك أن نخرج ونتسكع على الطرقات؟..

- نتسكع؟!.. كيف ذلك يا «كيكة»..

- نخرج دون أن نحدد وجهة سيرنا، لا نلتزم بموعد عودتنا، المكان الذي يعجبنا نتوقف عنده، عندما نجوع نأكل.

- إنها فكرة جميلة.. ولكني لا أحب الخروج إلى الشارع بهذه الطريقة.. سأطلب من السائق أن يأخذنا إلى حيث نريد..

- الشارع نبض الحياة.. فلندع روتين حياتنا البليد داخل الجدران ونعيش ضجيج الناس والشوارع.. أم أنك تريد أن تغضب صديقتك الساحرة!

سار شادي بعربته، لأول مرة تلامس عجلاتها أسفلت الشارع..

كان وكأنه يرى الدنيا لأول مرة.. يسأل كيكي عن كل ما يشاهده.

صادفهم في طريقهم متسولين ومعوقين يجرّون أجسادهم المريضة ويستجدون الناس.

سألها شادي: أليس لهؤلاء المساكين أهل يهتمون بهم؟..

ابتسمت كيكي لسؤاله.. فمن عاش سجين غرفته مغموراً بالمال.. من أين له أن يعرف ما يجري في شوارع البؤس!..

– لو كان لهؤلاء البؤساء من يهتم بهم لما وجدتهم في الشارع.. أنت محظوظ يا شادي، كل ما تحلم به بين يديك، هناك من يهتم بك وينتظر إشارة منك لتنفيذ رغباتك..

انظر إلى هذا البائع العجوز كيف ترتجف قدماه غير القادرة على حمل جسده الهَرِم ولا زال يكافح للحصول على لقمة تمنع عنه شر الجوع.

وهذا الطفل المتسخ البائس ما ذنبه!.. أتى به أهله إلى هذه الدنيا، لكنهم حرموه منها حين ألقوا به في الشارع.. علموه ثقافة الذل.. اليد الممدودة .. واسطوانة من الأدعية زرعوها في حنجرته تعمل لدى رؤية الآخرين.

توقفا في مكان على البحر.. مر بهم الكثير من الباعة.. اشترى شادى من الجميع.. أعطاهم ضعف الثمن دون أن يكون بحاجة إلى أي شيء مما اشتراه.

انتشر الخبر كالنار بين الباعة والمتسولين فتهافتوا إليه فنظر إلى كيكي قائلا: ليتني ساحراً، لكنت غيّرت حياة هؤلاء الناس.

جاء بائع الكعك.. شعر شادي بالجوع لدى رؤيته. التهم الكعك بنهم: إنها لذيذة.. أطيب ما ذقته في حياتي.. ليت بقي معي مال لأشتري من هذا البائع كل ما معه من كعك وأوزعه على هؤلاء الملتفين حولنا من المساكين.

قالت كيكي: أنت رائع.. أخبرني هل أنت سعيد الآن في هذا «التسكع»؟. هل هناك ما يضايقك؟..

قطع كلامها رنين هاتف شادي: أنا بخير يا أبي.. نعم أكلت الكعك!!.. أطيب كعك. أنا سعيد جداً بالنزهة مع كيكي.

فرحت كيكي لما سمعته وقالت له: ما رأيك أن نلهو قليلا؟

- كيف؟..

- هيا أنظر إلى كيكي وما ستفعله.

أخذت تقلد زقزقة العصافير وتقوم بحركات بهلوانية.. بجسد أظهرت ثيابها الرياضية جماله ورشاقته.. اجتمع حولها المارة..

وقفت بينهم قائلة بصوت مرتفع مشيرة إلى شادي:

أقدم لكم الساحر الكبير شـادي.. سيقدم لكم بعض الألعاب السحرية العجيبة..

أجفل شادي من كلامها: ماذا تقولين؟

- هيا يا صديقي، قدم لهم الألعاب التي علمتك إياها.. سأساعدك لا تخف، إياك والفشل.

ببراعة متناهية أدهشت "كيكي" قام بعدة العاب سحرية أثارت الإعجاب، علا الهتاف والتصفيق طالبين المزيد.

لم يصدق شادي ما هو فيه.. تدفقت الفرحة من روحه أكثر من أن يستطيع استيعابها..

همست كيكي في أذنه: أنت قوي يا شادي.. أقوى من الآخرين، من منهم يستطيع أن يفعل ما فعلته أنت؟

***

اعتاد شادي الخروج من البيت يومياً.. اشتدت أواصر الصداقة بينه وبين البؤساء المعذبين الذين يزداد عددهم يومياً بعدما يخبر بعضهم بعضًا..

كثيرون أصبحوا يعرفونه ويحبونه، ينتظرون حضوره في المكان الذي اعتاد أن يقصده كل مرة..

لقبوه «شادي الساحر» يخبرونه عن معاناتهم ومشاكلهم.. يساعد من يستحق المساعدة.

والده كان يتابع أخبار شادي وكيكي بالتفصيل.. فأغدق على شادي بالمال قائلاً له: هذا المال لك، تصرف به كما يحلو لك بشرط أن يكون هذا الصرف في مكانه ومحله.

سؤال لم يعد ينسه كل ليلة قبل النوم: إلى أين سنذهب غداً يا كيكة...؟

تبتسم له من قلب يعتصره الخوف.. فقد تعلق بها كأنفاسه، أصبحت ظله، فهي تدرك أنها يوماً ما ستتركه.. أعادت إليه الحياة وستعود لقتله بيديها.

في يوم استوقفهما رجل.. كان يرقب ما يقومان به مع اصدقاء الشارع، وطلب ان يتعرف عليها:

- هل أستطيع التعرف إليك ايتها الجميلة؟..

- ماذا تريد؟

قال ونظره يتنقل على جسدها من أعلى إلى أسفل: عندي ملهى محترم هل تعملين عندي؟.. تقدمين عرضاً لالعاب الخفة كل ليلة..

- لا يا أستاذ أنا لا أعمل في أماكن مثل التي تذكرها..

- سأعطيك ما تطلبين من أتعاب.

- شكراً لك.

نظر إلى شادي وسألها: من يكون هذا الشاب؟

- الأمر لا يعنيك.

صرخ به شادي: ألا تفهم يا هذا.. ابتعد من هنا..

ولكن الرجل ازداد وقاحة سائلا شادي: هل هذه خادمتك؟

- إنها أختي.

- لكن لا تشبهك، لعلك تكذب عليّ..

قالت كيكي بغضب: أنت وقح.. ابتعد عن طريقنا.

غمز لها بطريقة سوقية قائلا: الشتائم من فمك عسل يا عسل.. أنت لذيذة جداً.

وبلمح البصر كانت لكمة قوية تنزل على وجهه.

قال وعينيه تقدح شراراً: لولا أنك امرأة لحطمت وجهك..

قال شادي مهددًا: من يمسها أقطع يده..

قهقه الرجل عاليا مشيراً بإصبعه إلى شادي: من سيقطع يدي.. أنت؟.. هيا أنا أمامك، تفضل قم عن كرسيك واقطع يدي..

أثار كلامه جنون كيكي فصرخت به: أنا من سيقطع لسانك يا حشرة قذرة.

- اخرسي وإلاّ مسحت بك وبه الأرض..

لم يعد يعرف من أين تاتيه الضربات.. فقد تحولت كيكي إلى وحش كاسر.. اسقطته أرضاً، أخذت تركله على رأسه. وسط دهشة المارة الذي توقفوا يشاهدون ما يجري.

- أرأيت كيف تُمسح الأرض والأحذية بأمثالك؟

ثم تابعت طريقهما هي وشادي.

قال شادي: أنت قوية جداً يا كيكي.. هل يعقل أن تكون امرأة بقوتك؟. ثم هذا الرجل أغضبني جدًا لأنه تجرأ وأساء لك.

- شادي حبيبي .. هل نغضب من تصرف الحيوانات؟

- لا.

- هل تعرف لماذا؟

- طبعًا لأنهم حيوانات.

- أحسنت.. هكذا أريدك، أن تميز الحيوان من الإنسان من خلال تصرفاته. والقوة ليست في الجسد وحده، أيضا في العقل.

***

إنقلاب كبير طرأ على حياة العائلة، وكأنه انتقال من الجحيم إلى الفردوس.

خرج شادي من كآبته وعزلته بعد ان حوّل حياته وحياة والده وكل من حوله إلى جحيم.

استطاعت كيكي ان تزرع جمال روحها في روحه الحزينة بما اكتسبته من حكمة ورثتها عن والدها.

قال لها والد شادي: أنا مدين لك بحياتي يا كيكي، اطلبي ما شئتِ وسيتحقق فورًا.

- لا أريد شيئا سوى راتبي الشهري مثل أي عامل هنا. ما نقدمه من القلب لا ثمن له يا سيدي.

- دعيني أقبل يديك يا ملكة العطاء...

– العفو هذا عملي وواجبي الإنساني.

– عيد ميلاد شادي هذا الشهر.. منذ عشر سنوات لم أحتفل بعيده بسبب كراهيته للأعياد. يجب أن يكون عيده هذه السنة بحجم عشرة أعياد مرّت من عمره ولم يفرح بها.

***

شادي: من سندعو إلى عيد ميلادي يا كيكة؟.. أبي سيدعو أصدقائه.. وأنا ليس عندي أصدقاء.. ما رأيك أن أدعو أصدقاء الشارع؟..

صفقت له: يا لها من فكرة عظيمة!.. أحسنت يا شادي.

– وإذا لم يوافق أبي؟

– سيوافق، لأنه لا يريد إلا سعادتك.

***

صباح يوم عيد الميلاد، أبلغها والد شادي بأنه سيرسل لها أخصائي تجميل ليهتم بوجهها وشعرها قائلًا:

– أريد أن تكون ابنتي "كيكي" ملكة جمال في عيد ميلاد شادي.

– لا أحب الزينة يا سيدي.. أُفضل أن أبقى على طبيعتي، فأنا لم أعتد على هذه الأمور.

– اليوم عيد حقيقي... هل نسيتي يا ابنتي؟..

جاء المزين، شاب وسيم، شديد اللطف..

سألها: كيف تفضلين يا سيدتي أن يكون ماكياجك وتسريحة شعرك؟..

- أريد فقط ترتيب شعري قليلاً دون وضع أصباغ على وجهي.

- قال مستغرباً: كيف ذلك؟.. لديك مناسبة وأنا أتيت لأجل ذلك.

- أجابته: وهل يجب أن نجعل شكلنا غريبًا عجيبًا لتكتمل المناسبة؟..

- كما تريدين يا سيدتي.. ولكن أي تسريحة تريدين؟..

احتارت بما تجيبه.. تجهل هذه الأمور.. لأول مرة سيلامس رجل شعرها..

- بصراحة لأول مرة أجلس أمام مزين..

- وكيف تعتنين بشعرك إذن؟..

- كل عنايتي بشعري هي قص أطرافه بنفسي كل عدة أشهر..

استغرب جداً.. "ابنة طبيب التجميل الشهير، صاحب أهم مركز للتجميل، ولا تعتني بشعرها وزينتها!"..

امتدت يده وفك جديلة شعرها فانساب على كتفيها شلالًا أسود امتد حتى أسفل ظهرها..

أذهله جمال هذا الشعر الطبيعي الذي لم تلمسه الأصباغ.. لم ير طوال فترة عمله شعراً جميلاً كهذا.

نظر إلى وجهها في المرآة فالتقت عينيه بعينيها.. ارتجفت حواسه وتجمدت يديه على رأسها.

- قال مرتبكاً: شعرك جميل جدًا يا سيدتي.

- شكرًا لك.. ولكنه بحاجة لقص أطرافه، منذ زمن لم أقصه..

دوار خفيف أصابها من لمساته على شعرها..

كان يعمل بصمت وكأنه في عالم آخر.. وهي لا تعرف لماذا تمنت لو يحدثها.

- سألها فجاة: لماذا لا تزورين مركز والدكِ؟

- إنه بمثابة والدي.. أنا موظفة عنده أهتم بابنه شادي.

انفرجت أسارير وجهه، وشعر بأن دربًا مقفلا شرع أمامه.

- كنت أعتقد أنكِ إبنته.

- إنه إنسان طيب جدًا ويعاملني كابنته.

- كلامك صحيح.. أنا أعمل معه وأعرف أخلاقه جيدًا..

قطع حديثهما صفير شادي تعبيرًا عن إعجابه:

- ما هذا الجمال يا كيكة.. لأول مرة أرى شعرك على طبيعته.. فمنذ عرفتك وشعرك مجدول إلى الخلف.

- شكرًا يا شادي البشع.. انطلقت ضحكة عالية من الثلاثة...

تابع المزين عمله، ولكن شادي استوقفه بانفعال:

– ما بك بطيء في عملك.. اسرع من فضلك، لدينا أعمال كثيرة بانتظارنا.

استاءت كيكي من تصرفه الغريب.. وما إن خرج شادي حتى أعرب المُزين عن انزعاجه.

– أعتذر لك عنه.. هو طيب ومهذب.

ناولها بطاقتة قائلًا: أرجو الاتصال بي إذا أردتِ.

–لا أملك هاتف..

– لماذا؟

– لا أحتاجه، فليس عندي من أتصل به أو يتصل بي..

قال وابتسامة ساحرة على وجهه أطاحت بقلبها:

– الآن أصبح عندكِ من تتصلي به ويتصل بك.

***

وصلت سيارة النقل الكبيرة التي تم إرسالها لنقل رفاق شادي إلى الفيللا.. كانوا عشرين شخصاً من المشردين والمعوقين جسدياً والباعة الجائلين.

رهبة الموقف والمكان جعلتهم مترددين، خائفين، تسمروا في مكانهم.. ما اعتادوا هذه الدعوات ولا مرّوا بهكذا تجربة.

أطلّت صديقتهم «كيكي».. استقبلتهم بابتسامتها ومرحها.. تبدد بعضاً من خجلهم..

- تفضلوا يا أصدقائي.. أهلاً وسهلاً بكم.. شادي بانتظاركم.

استقبلهم شادي بالترحاب.. معبرًا عن شكره وسعادته لحضورهم..

والده بدوره رحّب بهم، مشيراً إليهم بالجلوس إلى طاولة شادي: تفضلوا يا أولادي، لا تخجلوا البيت بيتكم.

بيد كل منهم هدية.. حملوا لشادي أغلى ما عندهم.. بائع الورد أهداه ورداً... والآخر عقد ياسمين.. وذاك علباً من العلكة... وآخر كعك.

المشهد أثار استغراب المدعوين من الطبقة المخملية ورجال الأعمال، وهم يشاهدون مجموعة غريبة من البشر، دون لباس رسمي ولا فساتين برّاقة ومجوهرات ودون «أتيكيت»..

اعتقدوا في البداية أن هؤلاء فريقاً من الممثلين أتوا ليقدموا عرضاً فنياً ضمن برنامج الإحتفال.

أحدهم سأل مستفسراً: من هؤلاء يا أبو شادي؟.. إنهم يشبهون أولاد الشوارع.

رمقه بنظرة حادة مجيباً: لا يشبهون أولاد الشوارع.. بل هم أولاد الشوارع بشحمهم ولحمهم.. من متسولين، ومشردين، ومعوقين..

قال الرجل بانفعال: وكيف سمحت لهم بالدخول إلى الفيللا؟.. وأيضاً أجلستهم بجانب ابنك!.. كان المفروض أن تقوم بعملك الإنساني معهم وتضع لهم الطعام في الخارج ولا تتركهم يسرحون هنا بيننا.

أجاب والد شادي وقد بدأ دمه بالغليان: إنهم أصدقاء إبني المقربين.

- أصدقاء ابنك؟..غير معقول!. ابنك يصادق هذه الطبقة من المخلوقات؟.. أنت تمزح!..

- لا أمزح أبداً.. ابني أكثر إدراكاً ووعياً من أبيه باختيار الأصدقاء.

- شخص آخر كان يسمع الحديث قال مستنكراً: أولاد الشوارع والمتسولين يجلسون بيننا؟.. يحتفلون معنا؟.. كيف تسمح لابنك بهذه المهزلة وأنت تعرف مستوانا ومكانتنا؟.. إنها إهانة كبيرة!..

صُعق والد شادي بمستوى أخلاق وتفكير من كان يظنهم كباراً.. وقدوة في المجتمع.. لم يحترموا صورة الإنسانية المعذبة المتمثلة بمخلوقات كل ذنبهم أنهم فقراء.. وأيضا لم يقدروا وضع ابنه، ولا مشاعر والد يعمل المستحيل لإرضاء ولده الذي حرمه القدر ان يعيش حياته كباقي البشر..

غضب شديد اجتاحه، حاول تجاهل الأمر كي تمر المناسبة على خير.. ولكن حديث تسلل إلى أذنيه:

– ما رأيك يا «بيك» ان تدعو أصحاب شادي إلى عيد ميلادك؟.. على الأقل ستأتيك هدايا ثمينة من العلكة والكعك!.

أجابه «البيك» وكرشه الكبير يعلو ويهبط أمامه من شدة الضحك: يا لها من فكرة رائعة.. سأستفيد من حضورهم ببعض المشاريع الكبيرة لشركاتي.. وأيضاً سيعطون للمناسبة قيمة معنوية لم أحلم بها.

ضحكا بشكل هستيري..

لم يحتمل ما سمع.. اقترب منهما قائلاً بهدوء يسبق العاصفة:

– هل أستطيع يا أصدقائي أصحاب الشأن والمراكز المرموقة، ان آخذ منكما لحظة وتعودا بعدها إلى إكمال الضحك؟..

– طبعاً تفضل.

قال للرجل البدين بصوت منخفض كي لا يسمعه أحد: كيف حال ذاكرتك يا صديقي، هل لا زالت قوية؟..

– طبعاً.. وهل هذا سؤال يا صديق العمر؟..

– إذن لا زلت تتذكر ذلك الطبق من القش الذي كنت تبيع عليه الحلوى التي تصنعها والدتك؟..

تبدلت سحنة الرجل حتى كاد الدم أن يفر من وجهه: ما هذا الكلام يا رجل؟.. لا أفهم ما تقوله.

كنت اشتري منك قطعة حلوى يومياً وأنا في طريقي إلى المدرسة.. كنا بعمر الخامسة عشرة.. أتتذكر؟.. أصبحنا أصدقاء، أخبرتني عن إخوتك الخمسة الأيتام، وكيف عانوا الجوع بعد موت والدك، مما اضطرك لترك مدرستك والنزول إلى العمل كي تؤمن لهم الرغيف.

أجاب هامساً: ما بك.. تحفر القبور الآن؟..

- دعني أكمل من فضلك.. في الحرب الاهلية امتهنت تجارة الحرب.. بعدها أصبحت من كبار الأغنياء، صاحب أكبر شركات، ثم قدمت ترشحك للنيابة..

أعذرني يا صديقي، أحببت فقط اخبرك بأنك كنت يوماً نظيفاً كهؤلاء الباعة والمشردين..

لم ينبس البيك بكلمة، اخذ زوجته وخرج من الحفل بصمت.

***

كيكي بجمالها وحضورها كانت نجمة تزين العيد.. ببشرتها السمراء، وعيناها الخضراوان، وثوبها الأحمر الضيق الذي أظهر جمال ورشاقة جسدها.. وشعرها الأسود المسترسل على كتفيها حتى أسفل ظهرها..

بدت كساحرة الحكايات.. قدمت عرضاً مدهشاً لألعاب الخفة، أظهرت فيه كل براعتها، فأضفت جواً رائعاً بخفة ظلها وحركاتها التمثيلية الراقصة أثناء العرض..

اشتعل التصفيق وانهالت كلمات الإعجاب.. ولكنها لم تكن تشعر سوى بتلك العيون الجميلة التي، ترصد حركاتها.. مثلما ترصد عيناها صاحب هذه العيون..

إنه "زين المزين".. الذي خفق له قلبها لحظة رأته للمرة الأولى..

وصلة غنائية لمطرب السهرة.

الغناء الجميل والإيقاع الراقص أثار الحماس للرقص..

دعت كيكي أصدقاء شادي للرقص فتمنعوا خجلاً ولكنهم وافقوا أمام إصرار شادي.

راقصتهم "كيكي" تمايلت بينهم، شجعتهم.. تمايلوا حولها.. فرح فاض من قلوبهم، فتحركت أجسادهم على إيقاعه..

شاركهم "زين" الرقص، تمنت كيكي لو أن الموسيقى لا تتوقف إلى الأبد..

كم كان جميلا رقص فتاة معوقة جسدياً.. لم يثنها إلتواء كعوب قدميها عن رقص أثار الدهشة والإعجاب..

كان شادي يشاهد رقص الفتاة بإعجاب.. ورقص "كيكي وزين" بغيظ.

عادت الفتاة إلى مكانها بجانب شادي، لاحظ الدموع في عينيها..

سألها بهلع: ما بك يا سارة؟

- أجابت ودموعها تسبقها: هل أنا قذرة وكريهة المنظر؟.. وهل اخطأت أو أسأت إلى أحد عندما رقصت؟.. أو لأن قدماي مشوهتان!.. لا يحق لي أن أرقص كالآخرين؟..

- ماذا الذي حصل معكِ؟

أشارت إلى إحدى السيدات: هذه السيدة نهرتني عندما مررت أمامها وأنا أرقص قائلة: ابتعدي، لا تقتربي مني مرة ثانية، ألا تكفينا رؤيتكم في الشوارع، وترقصين أيضاً!.. ألا تشاهدين نفسك!.. تباً لوقاحتكم.

سأل شادي والده مشيرًا إلى تلك السيدة: بابا.. من تكون هذه السيدة؟

- إنها زوجة صديقي.. سيدة محترمة لها مكانتها في المجتمع.. رئيسة جمعية كبيرة للعمل الاجتماعي والانساني.. هل تحب أن أعرّفك عليها؟.. ولكن لماذا تسأل يا ولدي، ولمَ أنت متوتر هكذا؟..

- إنه مجرد فضول يا أبي.

***

إنتظر شادي حتى انتهى المطرب من وصلته الغنائية، فقال بصوت مرتفع وانفعال شديد:

– والآن أقدم لكم أصدقائي أبناء الفقر والعذاب.. وجودهم معكم تحت سقف واحد، أثار غضب واستنكار البعض منكم.. فانطلقت ألسنتكم تفيض بما تخبئون خلف مظهركم النظيف من مشاعر بشعة.. وكأن الذين أمامكم ليسوا بشراً..

عم الصمت.. واتجهت إليه الأبصار والآذان.

أريد أن أخبركم معلومة مهمة تجهلونها!.. هؤلاء المشردين من فصيلة البشر، يولدون ويموتون، وياكلون ويشربون، ويقضون حاجاتهم مثلكم تماماً.

فارق بسيط بينكم.. أنتم تجلسون على أكداس من الأوراق المالية وهم يجلسون على الأرصفة.. تأكل الشوارع من أقدامهم وتشرب من عرقهم ليحصلوا على الرغيف.. لا أهل لهم.. مخلوقات مهملة بلا رعاية.... ليس هناك من يسأل عنهم ولا عن معاناتهم كي يغادروا الشارع!..

– همست له كيكي: كفى يا شادي ستغضب والدك.. لا تفسد الحفل.

– إذا أغضبه كلامي، معناه أنه مثلهم.. ثم أشار إلى إحدى السيدات فاتجهت الأنظار إليها.. قال لها بكل بجرأة:

– وأنتِ أيتها السيدة العظيمة، يا سيدة المجتمع التي ترأس جمعيات إنسانية، وتتاجر بمعاناة الفقراء، وتجمع الأموال باسمهم لتحولها إلى ثياب ومجوهرات..

سألته السيدة بصوت جهوري: هل تقصدني أنا بكلامك؟

– نعم بالتأكيد لك..

– كيف توجه لي هذا الكلام يا "ولد"؟

– أنا لست ولداً.. وأنتِ لستِ إنسان.. كيف سمحت لكِ أخلاقك بإهانة فتاة معوقة القدمين لأنها رقصت أمامك؟.. كان الأجدر بكِ أن تخجلي من نفسك أمامها، يا صاحبة لواء الإنسانية..

– صرخت به بانفعال شديد ولو كان باستطاعتها لقتلته: وقح، حقير، بلا تربية ولا أخلاق.. أصحابك أولاد الشوارع أصابوك بالعدوى، أصبحت واحداً منهم، الحق على والدك المحترم.

– تابع كلامه دون أن يتوقف عند كلامها: أسمال هذه الفتاة أثمن من فستانك الفاخر، ومن مجوهراتك ومن أصباغ وجهك، وتسريحتك، لسبب بسيط أن داخل ثيابها إنسان يشعر ويتألم.. وداخلك حجارة ونفاق.

فقدت السيدة آخر خيط من أعصابها فزعقت بكل ما استطاعت من فجور: لو كان من يتكلم إنسانًا كاملًا لأجبته بما يستحق، ولكنك نصف مخلوق.. أولاد الشارع يليقون بأمثالك وأمثال والدك الذي دعى الطبقة الراقية للسهر مع حثالة البشر.

ارتعب والد شادي على إبنه من نتيجة كلامها.. فقال وهو يرتجف غضباً: أيتها السيدة المحترمة.. أن يكون ابني نصف مخلوق أشرف له

من أن يكون مثلك بنصف عقل.. تفضلي انتهت السهرة، لا تنسي أن تأخذي هديتكِ معك..

انفجرت بأقذر الشتائم.. وسط ذهول من يعرفها ويعرف مكانتها الاجتماعية..

أمسك زوجها بيدها وجرّها نحو الباب عنوة..

لم تحتمل كيكي البقاء صامتة فلحقت بهم إلى الباب قائلة للسيدة بلهجة مؤدبة ويدها ممدودة إليها بمنديل ورقي:

- خذي هذا المنديل يا سيدتي الجميلة، وامسحي الأقذار التي سالت من لسانك، كي لا تشوهي جمال شفاهك المنتفخة.

إقتربت إحدى السيدات من والد شادي: لا تغضب مما فعله إبنك!.. كلامه حقيقي، ما حدث كان ضرورياً، لندرك أننا لسنا سوى أناس نائمون خلف طبقة من المخمل تغطى عفن ضمائرنا.. نعيش في مجتمع منافق يلهث خلف المظاهر أصاب نفوسنا بحالة انتفاخ، فلم نعد نرى الآخرين.. كان يجب أن نعود إلى حجمنا الطبيعي.

بعد السهرة قال شادي لأبيه: أعتذر منك يا أبي على ما بدر مني من وقاحة.. لم أستطع أن أتمالك نفسي أمام الإهانة التي تعرض لها رفاقي المساكين.

– قبله مداعباً رأسه: يا شادي الانسان.. أفتخر بك وبما فعلته.. أنت تصرفت بإنسانيتك وأخلاقك، وهذا ما أسعدني فقد اكتشفت حقيقة ابني وطريقة تفكيره.

رغم سنواتك العشرين شعرت بأنني الليلة فقط عرفتك.. شخصية قوية، جرأة بالدفاع عن الضعفاء.

تعلمت منك درساً لم أتعلمه في حياتي الاجتماعية والمهنية.. كنت مخدوعاً بهذا المجتمع الراقي، فإذا به ساقط مزيف.

ولا ننسى فضل كيكي بهذا التغيير الذي طرأ على حياتنا.

– كيكي هي سر سعادتي.. لولاها لبقيت سجين جنوني وعقدي النفسية.. وبقيت أنت يا والدي سجين القهر والمعاناة.. أبي أريد مساعدة من يستحق المساعدة من الناس المساكين.

– لك ما تريد يا بني، المال مالك ولك حرية التصرف به، شرط أن تنفقه في الطريق الصحيح.. كل ما أريده منك أن تكمل ما فاتك من علم.. سأحضر لك مدرسة بأكملها إلى البيت.

– لا تخف يا أبي ابنك يمتلك القلب والعقل وهذا يكفي.

ثم أردف ومسحة من الحزن على وجهه:

– لي طلب آخر..

– كل طلباتك منفذة حالا.. وإياك أن أرى الحزن على وجهك.. قل ماذا تريد يا سيد شادي.

– أريد أن تبقى كيكي معنا.. لا أستطيع العيش بدونها...

شعر الوالد وكأن ضربة نزلت على رأسه.. "شادي معه حق، لم أنتبه للأمر.. كيكي لها حياتها ومستقبلها.. هي ليست ملكنا، قد يأتي يوم وتقول أنا راحلة.. ولكن لا بد أن هناك سبباً جعل شادي يقول هذا الكلام؟"..

هب واقفاً بحجة الذهاب إلى النوم كي يقطع الحديث وقال: من قال لك إنها ستتركنا؟.. ليس لها في الحياة سوانا، نحن أهلها، وهذا بيتها.. لا تخف كيكة ستبقى معنا دائمًا.

وأردف قائلاً: أنا متعب ويجب ان أنام..

ولكن شادي عاد إلى الحديث: كل الفتيات يتزوجن، وكيكي فتاة جميلة وطبعًا ستتزوج وتتركنا.

– لا أحد يعلم بالغيب يا ولدي.. دع عنك هذه الأفكار، وهيا إلى النوم.

تملكه القلق، سرق نومه.. "شادي نطق بالواقع.. ماذا لو رحلت كيكي؟.. من يعيد إليَ شادي من بعدها؟".

في صباح اليوم التالي خرجا في مشوارهما المعتاد.

الحديث عن عيد ميلاد شادي رافقهما في الطريق.

شادي: يا له من عيد مليء بالأحداث، سيكون حديث المجتمع الراقي المزيف لفترة طويلة.. أخبريني بصراحة يا «كيكة» هل أخطأت بتصرفي مع تلك السيدة؟

– لا يا شادي.. هي المخطئة، ما قمت به كان عين العقل.. تلك التافهة المتعالية تستحق أكثر.. وبصراحة أسعدني تصرفك، فوجئت بك وبطريقة تفكيرك.. من أين أتيت بهذا الكلام المعبر وهذه الجراة؟..

– أفكار كثيرة تجول في رأسي، لم تجد سبيلاً للخروج إلى النور إلا بعد أن لسعني وجع الشارع الذي يحتضن آلام المعذبين أمثالي.. الفرق الوحيد بيني وبينهم أنني أعيش في قصر وهم يعيشون بلا سقف.. ولكن الوجع واحد لا يفرّق بين قصور وأرصفة.

كانت تستمع إليه بإعجاب: كم أنت رائع وشفاف، وكم أفتخر بك!..

شعر أن كلامها زرع له أجنحة من الفرح حلّقت به نحو النجوم.

فجأة قربت وجهها من وجهه وقالت:

– هل تعلم ماذا ستشتري الساحرة اليوم يا شادي؟..

تظاهر بالتفكير العميق ثم قال: منقوشة زعتر من عند أم نجيب!..

– زعتر ايها النجيب!..

– أعرف غرامك بالزعتر، منذ أسبوع لم نخرج ولم تلتهمي ما طاب لك من مناقيش لذيذة على "الصاج".

– أيها الذكي، أزف لك خبر قراري شراء هاتف ذكي مثلك.

ما كاد يسمع قرارها حتى شعر بأن الأجنحة التي حلق بها منذ لحظات قد تحطمت.. هوى إلى أرض الواقع المرير، ألم اعتصر أحشاءه بقسوة..

شرد بفكره: "تحقق ما كنت أخافه، تريد الهاتف للإتصال بالمزين، اهتمت به طوال السهرة أكثر مني، الرقص معاً، والأحاديث الجانبية، والضحك.. والآن وسيلة اتصال"..

قال بصوت متوتر: هاتف؟ ولماذا الهاتف؟..

– ليس أكثر من تسلية..

"تتسلى!!.. إذن أنا أصبحت أُسبب لها الفراغ والضجر"..

– حين أراد أبي إهداءك هاتفاً رفضتِ وقلتِ إنكِ لا تحتاجينه، فليس عندك من تتصلين به.. هل أصبح عندك الآن من تتصلين به؟

ضحكت لتخفي غيظها من كلامه: لم أكن أرغب حينها باقتناء هاتف..

– وما الذي تغيّر الآن وجعلك ترغبين به الآن؟.

– وما الذي يزعجك بالأمر يا شادي؟..

لم يُجب.. بماذا يجيب؟..هل يقول لها إنه يتقطع غيرة عليها؟..

شعور بالانزعاج من شادي راودها.. ما اعتادت أن يلجم أحد رغباتها ويحد من حريتها.. فهي تحب شادي ولكنها أيضا تحب خصوصيتها.

قالت محاولة تلطيف الجو: ستختار لي هاتف على ذوقك أيها المشاغب الجميل، أنت تعرف أنني عديمة الخبرة بالتكنولوجيا، وأيضاً ستعلمني على كيفية استعماله.

***

بدأ شادي يلحظ تغيّراً واضحاً في تصرفات كيكي.. لم تعد كالسابق تملأ البيت بهجة وضجيجاً بكلامها الجميل وطرائفها وحركاتها التمثيلية الضاحكة..

لم تعد مثل ظله.. أصبحت تتركه أوقاتاً كثيرة، خاصة عند المساء وتذهب إلى غرفتها، وكل مرة تقول له إنها تشكو من الصداع.

ارتعب محدثاً نفسه.. «هل اقترب موعد رحيلها؟.. كيف ترحل؟.. لا استطيع الحياة دونها»..

***

- ما بك يا ولدي، هل هناك ما يزعجك؟.. سأله والده:

- لا شيء يا أبي فقط بعض الصداع..

- صداع!.. ساطلب لك الطبيب حالا.

- لا أريد طبيباً.. تعرف أني لا أطيق رؤية الأطباء.

- لا بد أنه التشنج.. سأعمل لك بعض التدليك لكتفيك وستشعر بالراحة فوراً...

- نظر الوالد حوله متسائلاً: أين كيكي؟..

قال شادي بسرعة: ربما تتسلى على الهاتف..

- كيكي معها هاتف؟..

- اشترت هاتفاً منذ أسبوع وعلّمتها كيفية استعماله..

- من سمح لها بشراء هاتف من مالها الخاص.. لمَ لم تخبرني يا شادي حتى اشتريه لها؟.

أطلت كيكي وقتربت من شادي بلهفة: ما بك؟.. هل عاد إليك الصداع؟..

أجابها ساخراً: يبدو أن عدوى صداعك المتكرر انتقلت إلي..

حاولت تغيير الموضوع فقالت: دع عنك يا سيدي أنا أدلكه..

- حسناً.. شكراً لك يا ا بنتي.

ليست المرة الأولى التي تدلك كتفيه وعنقه.. فمعاناته مع التشنج طويلة، ولكنها المرة الأولى التي شعر فيها بإحساس غريب من لمسات يديها.. أحس بنشوة غريبة تسللت إلى شراينه لم يشعر بها من قبل.. أصابه دوار لذيذ فأغمض عينيه وألقى برأسه إلى الخلف، إلى صدرها..

سالته وهي تشعر بغرابة حركته: هل تشعر بالراحة الآن؟

أبقى رأسه على وضعيته.. هامساً: دعيني أريح رأسي قليلاً.

داعبت شعره الطويل: يا لك من طفل جميل!.. يبدو أن التدليك أصابك بالنعاس.. هيا الى غرفتك، فالنوم أفضل دواء للصداع.

– ستجلسين إلى جانبي تحدثينني حتى أغفو أليس كذلك؟..

– طبعاً يا شادي لن أنام إلا بعد أن أراك غارقا في الطبقة السابعة من النوم.

قطع حديثهما رنين هاتف كيكي.. أجفل شادي وكأن ضربة مفاجئة سقطت على رأسه.

عبث الرنين باعصابه، شعر أنه أفقده حلماً جميلاً كان بانتظاره.. فقال غاضباً:

– اللعنة على الهواتف، من هذا الثقيل الذي يتصل بكِ الآن؟..

فوجئت بردة فعله.. نظرت إلى الهاتف بارتباك شديد قائلة: لا داعي لهذا الانفعال.. يبدو أن هناك من طلب رقمي بالخطأ..

– أرني الرقم سأعرف من المتصل من خلال برنامج على هاتفي..

لم تتمالك نفسها فقالت: لم كل هذا الغضب؟.. إنه هاتفي وشأني الخاص.. هل سألتك يوماً من يتصل بك؟.. هل قصرت معك يوماً يا شادي؟

أطرق برأسه حزيناً: «معها حق.. ما شأني أنا بشؤونها الخاصة؟.. أنا بالنسبة لها عمل وواجب إنساني.. لا وجود لي في مشاعرها.. إنها تحبه.. وتكلمه، هو من اتصل!.. لا أحد غيره.. أنا وحدي من يحبكِ يا كيكة».

***

استفاق باكرًا، افتقد صوت كيكي وضحكتها.. أدمنت روحه الإستيقاظ على عطر حقولها الصباحية.. نظر إلى سريرها لم يجدها، السرير لا زال على ترتيبه..

صوت من أعماقه صرخ به: تخلّت عنك، ونامت في غرفتها لتتحدث مع حبيبها!.. كيف ستحبك أيها العاجز وتترك ذلك الشاب القوي الجميل؟.. كيف تعشق من بقي جسده طفلاً ينتظر أيدي تنظفه كل صباح وتبدل ملابسه وتضعه على كرسيه.. هي تهتم بك وترعاك، كما ترعى الأم ولدها ليس أكثر..

استيقظ من الوهم يا شادي، هي ليست لك ولن تكون.. أنت ميت، فكيف تعشق فتاة مثلها جثة؟..

اتبع صوت أعماقه التي لم تُظهر له سوى النصف الأسود من وجه الحياة.. شعر بأن الغرفة تضيق، جدرانها تقترب من سريره، تكاد أن تطبق عليه.

إنه يختنق.. لوح بيديه طالباً الهواء.. حاول الهرب.. نسي أنه غير قادر على النهوض من سريره.. اختلطت حواسه فصرخ من أعماقه بكل ما استطاع من قوة.. صرخة أيقظت كل من في المنزل.. صرخة غابت عنهم سنتين.

وجدوه بحالة جنون يتخبط في سريره.. يضرب بيديه ورأسه لا أرادياً.

وقف الجميع مذهولين أمام مشهد مؤلم، كانوا يعتقدون أنه انتهى إلى الأبد...

غمره والده الذي كاد يسقط أرضا من هول المشهد: شادي.. ولدي حبيبي.. يا روح بابا.. ما بك؟.

تجمدت كيكي في مكانها، شعرت بعقدة الذنب: أنا السبب، «زين» هو السبب.. ما كان يجب أن أترك شادي وحيداً وأسهر على الهاتف مع «زين».. كيف أخذني النعاس ونمت بعيداً عنه!.. ولكن ما ذنبي!.. أنا لم اخطيء ولم أسيء إلى أحد.. حياتي لك يا شادي ولكن قلبي لي أنا.. ثم انفجرت ببكاء مرير..

صرخ بها والد شادي: ماذا حصل يا كيكي؟.. ماذا فعلتي لشادي؟..

أجابت من خلال دموعها: سهرنا قليلا، وضحكنا كثيرًا وبعدها نام..

– ولمَ لمْ تنامي معه بالغرفة كالعادة؟

- استلقيت بغرفتي بسبب الصداع، وأخذني النوم دون أن أشعر.

اقتربت من شادي في محاولة لتهدئته: شادي حبيبي اهدأ.. سامحني، لن أتركك لحظة بعد الآن..

توقف عن الصراخ ونظر اليها مطولا: دعيني.. أنت لك حياتك وأنا لي مماتي.. لست سوى جثة مرمية على كرسي تنتظر من يدفنها.. ليس ذنبك.. إنه قدري، قدري الذي يسمح لي أن أكره.. ولكنه لا يسمح لي أن أحب كباقي الشبان..

- اسكت يا شادي، كيف تقول هذا الكلام؟.. اسكت..

قال ودموع حارقة تبلل وجهه وشعره: شيء ما انكسر يا كيكة، أعرف جيداً حجم نفسي.. سأعيش بقية عمري عالة على غيري.. حتى أبي فقد القدرة على أن يعيش حياة طبيعية بسببي.. سأحتاج طوال عمري حياة شخص يأخذ مكان ما أفقدني إياه القدر.. فمن يكون هذا الإنسان سواك يا أمي.

***

التّوْأَم واللعبة

خرجت من محل الألعاب تحتضن لعبة جميلة بقلب يتوهج فرحاً أبى إلاّ أن يتجلّى على ملامح وجهها بأبهى صور للسعادة..

خطواتها تسير لوحدها، على إيقاع خيالها الذي سبقها إلى البيت ليسترق بعض المشاهد من بهجة ابنتها الصغيرة حين تقدم لها هذه اللعبة التي شاهدتها على شاشة التلفزيون في برنامج للأطفال وطلبت من والديها أن يشتريا لها مثلها تماماً...

اليوم عيد ميلاد صغيرتها، كانت تنتظر هذا اليوم لتقدم لها هدية العيد، اللعبة التي اعجبتها..

اقتربت من سيارتها، وضعت ما تحمل من أغراض على مقدمة السيارة ليتسنى لها فتح الباب...

بلمح البصر اختفت اللعبة من أمامها.. كادت المفاجأة أن تفقدها توازنها..

رأت فتاتين صغيرتين، تعدوان بأرجل عرجاء.. بالكاد تقويان على الركض... تعثرت إحداهن وسقطت أرضًا.. توقفت الثانية لتتفقد

رفيقتها مما أتاح للسيدة الوصول إليهنّ بسرعة وانتزاع اللعبة... صارخة بغضب شديد:

- اللعنة عليكنّ تمتهنّ السرقة منذ الصغر..

نظرت الفتاة الصغيرة نظرة قاسية إلى وجه السيدة وهي تنحني لترفع رفيقتها عن الأرض، تفقدتها من رأسها حتى أخمص قدميها نافضة ما علق بثيابها من وحل الشارع الذي كان منذ قليل تحت وابل من المطر..

سألتها بحنان ولهفة وهي تعيد لها بصعوبة وبيد ملتوية نظارتها إلى عينيها: هل تشعرين بألم يا أختي؟...

أجابت الفتاة بكلمات مبهمة غير مفهومة وهي ترتجف مشيرة إلى كتفها..

بدا أنها بكماء.. فهمت أختها عليها، أجابتها ببعض الإشارات من يدها وضمتها إليها قائلة للسيدة وبكل جرأة:

- لا.. نحن لسنا لصوص... أنتِ من سرق لعبتنا...

أجفلت السيدة من جواب الفتاة وقالت ضاحكة:

- يا لوقاحة أولاد الشوارع!..

حدقت بالفتاتين ملياً.. بدا واضحاً انهن توأم بعمر التاسعة تقريباً، يكاد الناظر إليهن لا يميز الواحدة عن الأخرى..

على وجه كل منهن نظارات سميكة مما يدل على ضعف قوي في النظر...

أيديهن اليسرى ملتوية، وأقدامهن اليسرى ملتوية وضعيفة..

قالت الفتاة وهي تحدق باللعبة بوجه تختلج ملامحه الماً وغضب:

- نحن لا نسرق، كل ما فعلناه أننا أردنا أن نأخذ حقنا، هذه اللعبة لنا... نعم هي لنا وأنت أخذتيها..

منذ أيام ونحن نقف أمام واجهة هذا المحل، نتفرج على الألعاب الجميلة وعلى الأولاد الذين يأتون برفقة أهاليهم ويشترون لهم ما يعجبهم من الألعاب...

تعلق قلبينا بهذه اللعبة وحلمنا بملامستها.. كنا نعرف أنها بعيدة المنال، فلا أهل لنا ولا نملك مالاً لنشتريها...

اليوم عيد ميلادي أنا وأختي، قررنا الحصول على اللعبة بأية طريقة للاحتفال بالعيد.. ثم ارتفعت نبرة صوتها الباكي: ألسنا مثل بقية الأولاد؟...

قالت السيدة بحزن وقد لامس قلبها صدق الفتاة: وأين أهلكم؟.

يبدو أن الدموع كانت تنتظر هذا السؤال لتنتفض من محاجرها... فسالت بغزارة من تحت نظاراتهما وكأنهما مظلات وجع...

- لا أهل لنا...

- يا إلهي!.. أنتن يتيمتين؟..

- عندنا أب وأم وزوجتا أب وثلاثة عشر أخ وأخت.. ومع ذلك نحن أيتام.. الكل في البيت يعاملوننا كالحشرات.

- ماذا تقولين؟!!..اهدئي يا ابنتي واخبريني..

استرسلت الفتاة بالكلام الذي تزاحم في حنجرتها ولم يعد لسانها يعرف بأية عبارة ينطق..

- أبي يكرهنا جداً خاصة بعد أن طلّق أمي وتزوج امرأتين سواها.. وعنده ثلاثة أولاد من زوجة قبل أمي..

كان يضربها كثيراً ويقول لها: أنت شيطان لا تلدين إلاّ أولاداً مشوهين...

وسط دهشة المرأة واستغرابها، تابعت الفتاة: كان يمنعنا من رؤيتها، وعندما نقول له اشتقنا إلى أمي ونريد أن نذهب اليها!.. يضربنا بمساعدة زوجته الجديدة.. قائلا:

معاقات مثل أمكم الكافرة..

في يوم هربنا من البيت وذهبنا إلى أمي.. لكن جدتي أخبرتنا بأنها تزوجت، وزوجها يمنعها من استقبالنا في بيته.

قالت السيدة: أي قلب هذا.. كيف تؤثر زواجها أو ترضى أن ترتبط بمن يمنعها من رؤية فلذات كبدها.. يا لها من أم قاسية القلب..

– أمي كانت تحبنا كثيراً.. حين طردها أبي ومنعها أن تأخذنا معها تعذبنا على فراقها وكم تمنينا الموت أنا وأختي.

ولماذا طردها والدكما؟

لا نعرف سبب كره أبي لها، ولكننا كنا نسمعه دائماً يتحدث عنها مع زوجاته قائلاً:

كان يجب أن أقتلها لا أن أطلقها.. فهي امرأة كافرة تسكنها الشياطين.. ترتدي الألبسة غير المحتشمة.. لا تحترم عملي الذي أوكلني الله به لهداية البشر.. وفوق ذلك تريد أن تجلب تلفازاً إلى البيت، وتسمع الأغاني..

أكملي.. يا ابنتي:

إحدى المرات أخذتنا أمي خفية عن أبي إلى بيت إحدى قريباتها، في الطريق توقفت واشترت لعبة جميلة.. فتوسلنا إليها أن تشتري لنا مثلها فقالت:

إنْ شاهد والدكما لعبة معكم سيضربني، ويقول إنني أُفسدكن، فهذه الأشياء بنظره حرام..

توقفت الفتاة عن الكلام وكأنها انتبهت إلى شيء: وماذا يعني حرام؟..

– يا ابنتي حين تكبرن ستعرفن الجواب.

استرسلت الفتاة في حديثها.. لأول مرة تجد من يسمعها ففاض قلبها بمكنوناته.

في ذلك المنزل، كان هناك زينة وطاولة ملأى بالحلوى، وأولاد يرتدون ثياباً جميلة، وألعاباً، وأناس يتمايلون على صوت الموسيقى.. وطفلة من عمرنا وضعوا لها الشموع في قالب كبير من الحلوى، أطفأتها وسط التصفيق والغناء.

المشهد الغريب جعلنا نلتصق بأمي خائفات..

- لماذا يفعلون ذلك يا أمي؟..

- في مثل هذا اليوم ولدت هذه الفتاة، أهلها يحتفلون بيوم ولادتها ويعبرون عن فرحتهم بها وبمجيئها إلى الحياة..

- ونحن متى عيدنا يا أمي، بأي وقت يأتي؟.. لما لا تحتفلون بنا؟...

- تاريخ ميلادكن يكون في الوقت الذي يبدأ الشجر يزهر... ولدتم بداية الربيع.. في نهاية الشهر الرابع من السنة.

تمتمت السيدة وهي تبتسم بوجه الفتاة عساها تشعرها بشيء من الراحة وسط هذا الزحام من الشعور بالحزن المترافق مع الخوف الذي يملأ عيون هاتين الفتاتين، فقالت:

- إنه موعد ميلاد ابنتي أيضاً..

لكن الفتاة كانت في عالم آخر.. بعيد عن الابتسام الذي لم تتعوده، وتابعت ببراءة وعفوية:

– منذ أيام رأينا الشجر بدأ يزهر، تذكرنا كلام أمي، إنه وقت ميلادنا!.. تذكرنا ذلك العيد الذي رافقنا أمي للمشاركة به.. فتجرأت وقلت لأبي:

– هل تعرف يا أبي أننا ولدنا في مثل هذه الأيام!..

قال لنا: وماذا يعنيني إن عرفت أو لم أعرف؟..

قلنا له ونحن نقبل يديه لإرضائه: الأولاد يحتفلون باليوم الذي ولدوا فيه ويقدم لهم أهلهم الهدايا..وأخذنا نتوسل إليه أن يشتري لنا لعبة بهذه المناسبة أو يعطينا المال لنشتريها.

– وماذا قال لكم؟..

– ضحك... ضحك كثيراً قائلاً لزوجته الكريهة: تعالي يا امرأة، اسمعي!.. الليلة عندنا احتفال كبير بمناسبة ذكرى ولادة ابنتيّ العزيزتين.. سنحتفل بذلك اليوم المشؤوم..

وأكمل دون التوقف عن الضحك: هيا جهزي الطعام والزينة والحلوى، وأنا ساذهب لشراء الهدايا والثياب لهن.. لا تنسي دعوة أبناء الحي..

انفجرت زوجته أيضاً بالضحك كالمجنونة وزعقت: ما كان ينقصنا إلاّ العمياء والعرجاء وأم نصف لسان ليجلبن لنا السخرية والعار... ليتكنّ ما خلقتنّ، اللعنة على أشكالكنّ، ألا يكفي أننا نطعمكما؟..

وافق أبي على كلامها وهو يردد: بنات أمهن الكافرة، النصف مخلوقات يردن أعياد ميلاد... من أين تعلمتم هذا الفجور؟..

قسوتهما جعلتني أشعر بالقوة فقلت دون خوف من الضرب الذي لم يعد يؤلمني: ما ذنبنا ؟.. أنتما ولدتمونا على هذا الشكل..

- اسكتي يا وقحة.. الله هو الذي خلقكما..

- طالما الله هو الـذي خلقنا، فهل يرضى الله أن تعاملنا كالحشرات؟..حتى لا تأخذنا إلى الطبيب حين نمرض كما تأخذ آخوتي.. والمدرسة حرمتنا منها..

- أنتن معاقات، نصف مخلوقات، ولن ينفعكما العلم والمدارس.. ألا يكفي أنكنّ ستبقين بوجهي كل العمر ولن يتزوجكن أحد.

صفعة قوية جعلتني أرتطم بأختي فسقطنا أرضاً..

- تعالي يا ابنة أمك، سألبسك عباءتي وتعظين الناس مكاني.. سامحني يا الله ابنتي تكفر.. ثم رفع يديه إلى السماء قائلاً: خذهما يا الله قبل أن تجلبن لي غضبك..

غمرتها السيدة التي صدمها ما تسمع: اهدأي يا ابنتي.. ماذا يعمل والدكِ؟..

– أبي رجل دين.. الناس يأتون إليه ويقبلون يديه ونسمعه يقول لهم أشياء كثيرة لا نفهمها.. مثلاً أن الله أوكله بإرشادهم إلى طريق الجنة..

(تلفت وجهها نحو السيدة) هل تعرفين ما هي الجنة يا سيدة؟..

تجاهلت السيدة السؤال وحدقت بالفتاتين ملياً، مذهولة بما سمعت...

رأت صورة قاسية للألم والعذاب، مرسومة بيد مخلوقات أعمت بصيرتها أزمنة من العتمة.. تسلل العفن إلى داخل رؤوسهم... انبتوا الأطفال!!... جيوشاً من الأطفال وقالوا لهم: الشمس كافرة، إنها عدونا الأزلي.. انحروا من ينظر إليها..

امتدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت بعض المال قائلة: اشتريا اللعبة التي تعجبكن هدية مني بمناسبة عيد ميلادكن..

– لا.. لا نريد شيئا.. لا نريد ألعاباً نلهو بها.. نريد ألعابًا تلهو معنا... نريد أماً وأباً..

امسكتا بيد بعضهن، وسارتا نحو المجهول لتتسولا ميلاداً جديداً...

***

الكُرسِي الأخير..

ببطئ يسير متثاقل الخطى كخطوات حذرة لطفل في مشيته الأولى... كان يعبر الشارع باتجاه الحي في طريقه إلى منزله... أصوات الباعة تملأ المكان: لدينا أجمل الهدايا لعيد الأم...

عيد الأم؟!!..

شعر وكأن أيدٍ سوداء قبضت على قلبه واعتصرته بقسوة.. تأوه من الأعماق.. غطى أذنيه بيديه، لا يريد أن يسمع.. تلك الكلمة تفجر ما في داخله من ألم...

عيد؟!...

ما الذي أتى بك أيها العيد؟.. الأعياد ماتت، فلماذا تعود ذكراها كل عام لتقتلني من جديد؟!..

ألقت الذكرى على كاهل روحه بأكوام من الوجع.

صور دامية صعقت ذاكرته..

جرّ قدميه عنوة.. وصل إلى بيته بعد عناء، رمى بربطة الخبز التي كان يحملها إلى الطاولة، وتهاوى على الكرسي...

البيت مظلم، لولا بقايا من أشعة الشمس تسربت من نافذة عالية أثناء الغروب..

يا له من زمهرير!... ارتجف، تكوم حول نفسه، كاد أن يتوقف قلبه من الصقيع..

حدق إلى الكراسي الفارغة التي تحيط بالطاولة، هنا كانت عائلته.. خمسة كراسي على كل منها صورة من كان يجلس عليها يومًا ما.. وحده فقط لا زال يملأ كرسيه، وخمسة وجوه باسمة تحدق إليه..

تساقطت دموعه فوق الطاولة التي يغطيها غبار كثيف، مسحها بكفه فارتسمت أمامه لوحة من جراح الذكرى:

***

طاولة عامرة بالمأكولات، يتوسطها قالب حلوى وباقة ورد، وشموع مضاءة.

البيت كخلية النحل، الكل يعمل بفرح غامر.. فالليلة عيد الأم، والعمل على قدم وساق للاحتفال بالمناسبة..

الهدايا جاهزة.. رافق أولاده الأربعة إلى السوق لاختيار هدايا العيد لوالدتهم..

بدوره لم ينس رفيقة دربه وأم أولاده، فاشترى لها خاتمًا من الذهب.

الأم الجميلة المتألقة التي بدت وكأنها ملكة ليلة تتويجها، تملأ البيت بهجة وسعادة.. ترمي النكات والتعليقات الجميلة هنا وهناك...

اقتربت من زوجها ضاحكة: أيها الحسود كفى تحديقاً بالهدايا.. أعرف أن الغيرة تأكلك!!.. سنقيم لك عيدًا بل مهرجاناً في عيد العمال ونحتفل بك.. لا تغضب..

ثم تضمه بدلال قائلة: أنت حياتنا ووجودنا... أنت ملاذنا بعد الله.

***

غطى وجهه براحتيه يمسح ما هطل على خديه.. ونظر إلى الصور منادياً بحرقة:

أين أنتم؟... لماذا رحلتم!.. أين ضحكاتكم؟.. أين أصواتكم؟.. أين عيونكم؟.. خذوني إليكم... لِماذا أنا هنا لوحدي؟.. ماذا يفيدني هذا الجسد؟.. ليس سوى جثة أدماها غيابكم، وقلب ممزق يبكيكم ليل نهار...

عيناه تجولان على الوجوه المركونة فوق الكراسي..

متى يحين الوقت لتحتل صورتي المقعد الأخير!..

شهق بالبكاء.. خانته دموعه كما خانه الزمن..

من أين يأتي بدموع تكفي عائلته كلها؟..

هنا كانت تجلس زوجته وحبيبته، رحلت بعد مرض خبيث أقعدها في الفراش لمدة سنتين.

كان حينها أكبر أولاده الأربعة بعمر السابعة عشرة من العمر...

لم يتزوج كما يفعل كل الرجال، ضم أولاده تحت جناحيه، تحول الى أم لهم، نذر نفسه لتربيتهم والعناية بهم.. كل همه ألا يشعرهم بغياب والدتهم.. اهتم بكل أمورهم، وبشؤون البيت على أكمل وجه..

يجهز كل شيء ليلًا، ينظف البيت، يحضّر الطعام، يغسل الثياب، ويساعدهم في دروسهم... ففي النهار عليه الذهاب إلى عمله... حيث يعمل مدرس لغة عربية...

كان يثور غاضباً على كل من يقول له: لماذا لا تتزوج؟..

في عيد الأم كان أولاده يحتفلون به، فهو الأم والأب لهم.. يقدمون له هدية العيد قائلين: كل عام وأنت ماما وبابا...

***

هنا كان يجلس ابنه البكر، كان يدرس الطب.. تم استدعاؤه إلى الخدمة العسكرية الإجبارية بسبب الحرب الدائرة في بلده..

ذلك اليوم وقف ببزته العسكرية بقامته الفارعة ووجهه الجميل بعد أن قبّل يد والده قبل خروجه من البيت:

- رضاك يا أبي، دعواتك لنا بالنصر على أعداء الوطن...

وقع أسيرا بيد التكفيريين.. ليعود بعدها شهيداً..

هنا كان يجلس ابنه الثاني.. انفجار كبير وسط دمشق، فعاد إليه اشلاء..

هنا كانت تجلس ابنته الوحيدة "دلوعة" والدها.. هاجرت مع زوجها هرباً من أتون الحرب على متن "عبارات الموت".. كما فعل عشرات الآلاف من المواطنين السوريين.. غرقت مع زوجها وطفلها، ابتلعهم البحر كما ابتلع الكثير ممن هربوا من الموت الذي كان لهم بالمرصاد...

هنا كان يجلس ابنه الأصغر...الصدمة بموت إخوته وأهوال الحرب، جعلته انساناً محطماً، أصيب جسده بالهزال، لم ينفع معه الطب ولا العقاقير... كان يذوب ببطئ أمام أعين والده.. وفي صباح حزين غادرت روحه إلى خالقها.

عاد من تجواله على المقاعد الفارغة والصور، ليجد نفسه في مقبرة..

صرخ بأسماء أولاده وزوجته.. سمع صدى أصواتهم تناديه.. بركان اشتعل في أعماقه، شعر بقلبه يخرج من مكانه، وضع يده على صدره محاولاً لجم نار تتأجج فيه، أيها القلب التعيس، كل هذا اللهيب ولا زلت تنبض!!.

أخذ يردد: كفني؟!.. أين كفني؟..

***

فجأة سيطر عليه هدوء عجيب، وكأن ماءً بارداً صب فوق رأسه فتبدلت ملامح وجهه، قوة غريبة اندفعت في شرايينه..

سار بخطى ثابتة إلى الداخل، عاد بكوب ماء وقمقم دواء يحتوي على مبيد للحشرات..

أنزل صورة له كانت معلقة على الجدار، وضعها على كرسيه إلى جانب كراسي عائلته.

إبتسامة عريضة ارتسمت على وجهه.. شعور بالسعادة غمره: انتظروني أنا قادم إليكم..

أمسك هاتفه، اخذ صورة للكراسي.. فتح صفحته الفايسبوكية التي لم يزرها منذ أشهر.

أنزل الصورة على صفحته وكتب: أنعي إليكم نفسي.. أنا الآن في طريقي إلى السماء للقاء ربي وعائلتي.. أرجو أن تطلبوا لي الرحمة.. سامحني يا الله سأخالف تعاليمك ولكني اشتقت لعائلتي.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

***

تعليقات ساخرة وصلت إليه:

- لمن هذه الصور؟..

- ما هذا المزاح الثقيل يا صديقي!..

- فليرحمك الله..

- يبدو أنك أصبت بالجنون يا رجل!..

- تريد عمل ضجة بهدف حصد اللايكات؟..

- بلغ سلامي إلى كل من تقابله من الأموات.

أزعجته التعليقات والقهقهات في ذيل كل تعليق.

تمتم: "يبدو أن أحداً لن يصدقني!.. يجب أن يصدقوا ويعلم الناس بالخبر، كي يدفنونني قبل أن تتعفن جثتي.

أخذ صورة سلفي مع علبة السم وأنزلها على الصفحة، وكتب فوقها: هذا السم سأتجرعه الآن.. وداعاً.

أذاب في كوب الماء كمية من المبيد الذي كان على شكل "بودرة"، وشربه دفعة واحدة، لم يشعر بطعمه الكريه..

انتظر مجيء الموت بشوق، ولكنه تأخر.. لم يشعر بأية عوارض تنبئ بحضوره.. شرب كوباً آخر فشعر بحاجة للتقيؤ.

سمع طرق على الباب.. لم يبال.. هو الآن في طريقه إلى العالم الآخر وما عاد هناك ما يربطه بسكان الأرض..

يستمر الطرق مترافقاً مع صوت طفل: يا جيران.. يا جيران..

فتح الباب.. وجد طفل يبكي: ما بك يا ولدي؟

- "بابا عم بموت.. وماما بتقلك ساعدنا"..

نسي موته وهرع يصعد الدرج بأقصى سرعة.. وجد رجلاً غائبا عن الوعي ملتو الفم، تسيل الدماء من أنفه، وزوجته تنتحب فوق رأسه بحالة انهيار تام..

عمل على إنقاذ الرجل.. رافقه في سيارة الإسعاف إلى المستشفى..

نظر إلى نفسه وهو بجانب الرجل الذي يحتضر: ماذا يحصل؟.. كان من المفروض أن تنقل سيارة الإسعاف جثتي أنا في هذا الوقت.

ورافق جاره المريض حتى اطمئن عليه.. بقي في المستشفى حتى اطمأن عليه، وعاد فجراً إلى منزله.. أول ما فعله تفحص علبة المبيد فكتشف أنها منتهية الصلاحية منذ سنواتـ ولكن صلاحية حياته لم تنته بعد.

زَهْرة الحياة

يـوم عاصف بالألم، اشتد جنونه مع اقتراب المساء، فتكاثفت غيوم الوحدة في ليلها الذي اعتاد الظلام.. لتقفل عليها آخر منافذ الدفء...

البرد قـارس، اصطكت أسنانها، ارتـجفت مفاصلها.. تكاسلت حركة قلبها.

جليد مكدس في أعماق روحها.. تركته السنين الخاوية من الدفء.. تأوهت واضعة يدها على قلبها: يبدو أنه يومك الأخير أيها القلب الهرم!

التفّت بشال صوفي، اقتربت أكثر من المدفأة ولكن دون جدوى، ضاق صدرها، شعرت وكأنها تحتضر..

اعتادت وحدتها.. ولكن المناسبة في هذا اليوم «عيد الأم» تفتح جراح روحها وتضاعف وحدتها..

يوم عذاب طويل على مدى ما مرّ بها من عمر.. تتجسد فيه حقيقة واقعها المرير أمام عينيها، فتبكي أطفالاً كان يجب أن تلدهم، تحترق على سماع كلمة «ماما» كما كل النساء..

وحيدة لا عيد لها، لا أبناء يضيؤون لها شموع العيد، لا احتفاء، لا ورود، لا كلمة تهنئة، لا باب يُطرق حاملاً خلفه فرحة العيد...

ليت حواسي تتخدر في يوم العيد هذا، ليت القدر يحذف هذا اليوم المؤلم من عمري كي لا أموت مرات ومرات بعدد لحظاته القاتلة...

كم حَلِمتْ أن تكون أُمّاً.. ولكن حلم «الأمومة» مات منذ زمن بعيد، فقطار الزواج لم يتوقف على محطة حياتها...

وحيدة والديها، تعاني من إعاقة جسدية بسبب شلل الأطفال.. عكازتها رافقتها منذ الصغر..

كلمة "عرجاء" كانت تتسلل إلى أسماعها، في المدرسة وفي الشارع.. تجرحها، تمزق روحها.

انطوت في منزلها.. هرمت مع والديها، رحلا من الحياة تاركين لها الوحدة والعزلة في منزل فارغ يزعق الصمت في أرجائه..

***

اختارت لها عملاً في مركز للأطفال المعوقين، إنه المكان الذي تستطيع أن تطلق فيه فيض مشاعرها السجينة...

خمسة وعشرون عاماً مرت عليها في عملها، كانت أماً حقيقية لأولاد قدرهم أن يكونوا مختلفين عن باقي البشر.. أغرقتهم

بعاطفتها ورعايتها، أعطتهم من روحها ومن عمرها.. أطلقوا عليها لقب "الأم زهرة".

أصيبت بآلام في الظهر والقدمين نتيجة عملها الشاق، بالإضافة إلى مرض الضغط والسكري.. فتركت العمل مرغمة بعد أن كان كل حياتها.

***

صرخت: أنا أم.. أنا أم.. ردد خواء منزلها الصدى ساخراً مؤنباً: اصمتي يا "زهرة"، هذا قدرك، ألم تفهمي بعد؟..

شعرت بالجدران تطبق على صدرها، أصبحت تتنفس بصعوبة، هرعت إلى الشرفة كي تلتمس الهواء.

المطر غزير، اختلطت دموعها مع حبات المطر التي صفعت وجهها بقسوة، ولكنها لم تكن مبالية، فحواسها كانت بعيدة عنها ترقب ما يجري بالشارع من ضجيج العيد..

وقع نظرها على إنسان يعدو بسرعة تحت المطر بقدم عرجاء، حاملاً باقة ورد، يضمها إلى صدره خوفاً عليها من المطر.

تنهدت: آه كم أنتِ سعيدة أيتها الأم التي ستصلك هذه الباقة من الورود!.

تناهى إلى أسماعها رنين جرس الباب، لم تكترث، بقيت مكانها.. تعرف ألا أحد يأتي إليها، خاصة في المساء...

تواصل الرنين مترافقاً مع ضربات قوية على الباب، أصابها الذعر، زادها الخوف برداً وارتجافاً.. يبدو أن هناك من يريدها لأمر هام!.

سألت بصوت واهٍ: من على الباب؟..

سمعت صوت رجل يقول: افتحي يا سيدتي لا تخافي..

- من أنت.. وماذا تريد؟..

- أفتحي يا أمي!.. أنا ابنك!..

تراجعت إلى الخلف.. "ابني!.. للحظة تخيّلت أن يكون الأمر حقيقة.. ولكن الواقع عاد بها بلمح البصر فقالت والغصة تخنقها:

- ليس لي أبناء.. يبدو أنك لص تريد أذيتي..

- أرجوك.. أقبل يديك يا أمي زهرة دعيني أدخل..

- وتعرف اسمي؟..

فتحت الباب، رأت أمامها شاباً مبللا بالمطر وبيده باقة ورد..

مد يده إليها بالورد قائلاً:

- كل عام وأنتِ بخير يا أمي زهرة.

انحنى مقبلاً يديها، غمرها بقوة مقبلاً رأسها ووجهها..

كانت تقف جامدة مشدوهة بما يحصل، والماء يقطر من رأسها وثيابها..

تأبط الشاب الغريب ذراعها وأجلسها بجانب المدفأة..

الدهشة أربكتها حدقت به ملياً وسألته: من أنت، ولماذا جئت إلي، أليس أنت من كان يعدو تحت المطر منذ لحظات؟..

(هذا الوجه أعرفه ولكن صاحبه مقعد على كرسي متحرك لا يستطيع السير على قدميه)!..

- أنا ابنك هاني، هل نسيتِ هاني؟.. وتلك الحادثة المؤلمة منذ خمس سنوات؟..

- هاني!!.. أنت ولدي هاني؟..

***

عادت ذاكرتها إلى ذلك اليوم..

كانت قد خرجت من عيادة طبيب القلب، شاردة الذهن، متوترة الأعصاب، تُحدث نفسها: آه يا زهرة يبدو أنك على وشك الرحيل!.. ارتفاع السكر والضغط بهذا الشكل سيعجل بنهايتك..

لم تنتبه لحفرة أمامها، ولم تركز عكازتها في المكان الصحيح، فقدت توازنها وتهاوت..

لم تشعر إلاّ ويدين قويتين تمسكان بها قبل أن ترتطم بالأرض، وصوت يقول: انتبهي يا أمي، هل أصبتِ بأذى؟..

ابتسمت له بكل حنان: لا يا بُنيّ.. سلمت يداك.. الله يحميك لأهلك...

– تبدين متعبة، هل تريدين أية مساعدة.. هل أوصلك إلى مكان ما؟.. سيارتي مركونة على الجهة المقابلة من الشارع، سأجلبها وأوصلك إلى حيث تريدين.

– شكراً يا ولدي «الله يوفقك» سأوقف سيارة أجرة.

تركها وتابع طريقه، كان يبدو على عجلة من أمره.. رافقته بعينيها وبقلبها.. «ليت عندي إبن مثلك».

فجأة زعيق فرامل ملأ الشارع مترافقاً مع صرخة مدوية.. سيارة مسرعة صدمت الشاب وهو يحاول أن يقطع إلى الجهة المقابلة حيث سيارته.

قوة هائلة سرت في شرايينها، هرعت كالمجنونة، تتوكأ على عكازها بعجز.

يا لهول المشهد، كان مضرجاً بدمه، منذ لحظات كان يرفعها عن الأرض، والآن دمه يسيل على أسفلت الشارع... أصيبت بحالة هستيرية، أخذت تصرخ، تولول، وتلطم وجهها.

– ولدي أنقذوا ولدي..

ظن الجميع أنها أمه، أشفق عليها أحد المارة وحملها في سيارته خلف سيارة الإسعاف إلى المستشفى..

في طوارئ المستشفى كانت تبكي وتتوسل الأطباء والممرضات أن يطمئنوها عن حالة المصاب.. وجاءها الجواب الرهيب:

– الإصابة في الرأس والظهر وحالته سيئة جداً.. «الله يصبرك أيتها الأم المسكينة»..

أسبوع لم تفارقه، كان في غيبوبة تامة..

لم ترَ أحداً من أهله أو أقاربه جاء للسؤال عنه سوى شاب قال إنه صديقه. وأخبرها أن الشاب اسمه «هاني» يتيم الأبوين، لا أخوة له، مات أهله بحادثة أثناء رحلة لهم خارج البلاد وكان صغيراً.. وأشرفت على تربيته جدَّته لأمه.. سافر إلى الخارج لدراسة الطب، وعاد منذ عدة أيام للإطمئنان على جدّته المريضة، وحين صدمته السيارة كان يجهز نفسه للسفر في ذات اليوم مساءً..

ازدادت تعلقاً به، كانت تنظر إلى وجهه الوسيم، وتداعب شعره هامسة في سرّها: لن أتركك وحيداً في محنتك وآلامك يا ولدي..

بدأت صحة هاني تتحسن، استفاق من غيبوبته ليرى بجانبه أماً تختصر بحنانها أمهات الأرض.

تفاعل السر الإلهي العظيم بينهما المجسّد بعاطفة الأمومة والبنوّة، رافقته كظلّه، تعلقت روحه بها وهو الذي لم يعرف حنان الأم من قبل..

حين كان يسألها لماذا تفعلين ذلك من أجلي؟..تجيب باسمة: أنت ابن حملته في أحشاء روحي، ضاع مني قبل أن ألده، والآن وجدته..

خرج هاني من المستشفى على كرسي متحرك بعد شهر من العلاج والعمليات الجراحية.

***

عادت زهرة من دروب ذاكرتها هاتفة بقلبها قبل حنجرتها وهي تتفحص قدميه بنظرها المندهش: هاني ولدي حبيبي أنت تسير على قدميك؟...

– نعم يا أم هاني، سافرت لمتابعة دراستي وأنا على كرسي متحرك، اخترت التخصص بطب العظام.. وهناك تابعت العلاج لعدة سنوات إلى أن شفاني الله وعدت للسير على قدمي.. إلاّ أن إحدى قدمي أصبحت عرجاء، بقيت حاملة ذكرى ذلك اليوم الأليم، والسعيد معاً، لأنني وجدت فيه أماً.

أمسك بيديها، قبّلهما: هاته اللتين اعتنتا بي شهر بأكمله ليل نهار، هي التي أعادتني إلى الحياة وصنعت نجاحي.. أخذت مني الألم، وأعطتني الأمل، بعد أن كنت إنساناً محطماً مدمَّر الجسد والروح..

في غربتي كنت أتلمّس مكان لمسك جبيني وشعري، حين كان الألم يمزِّقني وأنا بين الحياة والموت في المستشفى أثناء العلاج.. كانتا تزودني بالصبر والإرادة. الشيء الوحيد الذي كان يؤرقني

ويعذبني، عدم معرفتي رقم هاتف ولا وسيلة للاتصال بك.. وأخذتني السنون بين علاج ودراسة.. جدتي ماتت أثناء غيابي.

وأردف مبتسماً وهو يشدها إليه: لو أن أمي زهرة تعرف بالتكنولوجيا كنت وجدتها منذ زمن بعيد.

كان يتكلم وقلبها يرافق كلماته: آه يا ولدي، كم فكرت بك، وكم اشتقت لسماع خبر عنك.

– عدت منذ أيام حاملاً لك هدية، كدت أجن لأعرف عنوانك، تذكرت اسم المركز الذي كنتِ تعملين فيه، ذهبت اليه، فربما يعرفون عنوانك. وهناك اكتشفت كم يحبونك.. حين سمعوا باسمك انهالت عليَّ الأسئلة:

– كيف حال الأم زهرة ؟..

***

– اليوم عيد الأم.. أتيتك بهدية العيد يا أمي.. ابنك الدكتور هاني يهديك شهادته في طب العظام.. كل عام وأنتِ أمي..

لأول مرة تعرف عينيها طعم دموع الفرح، بكت بغزارة قائلة: كنت أعرف أنني أم.. وأن أولادي ستلدهم الحياة واحداً تلو الآخر..

ضمها إليه قائلاً: يا زهرة العطاء لن أعيش دون عطرك بعد اليوم.

أمسك عكازتها ورماها جانباً: أنا الآن عكازتك يا أمي.

عيد السماء

نادى زوجته بصوت غاضب: استفيقي يا امرأة، لقد تأخرت عن عملي.. تكاد «عين الشمس» أن تحْمَى...

تململت المرأة في فراشها، فركت عينيها بعصبية في محاولة لإيقاظ بقية حواسها عنوة..

قالت وهي نصف نائمة: ما بك يا رجل.. لمَ تصرخ هكذا؟..

– هيا جهزي لي «الزوادة» عندي نهار عمل طويل.

– إلى أين؟.. ولماذا تحمل هذا «المعول»؟..

رفع صوته مؤنباً: أين عقلك.. ألا تعرفين إلى أين أنا ذاهب؟..

– استفق من جنونك يا رجل.. كفى ما تفعله بنا وبنفسك.. عُد إلى رشدك «اللي راح راح وانتهى».

بكت.. كفاك تعذيباً لقلبي الذي انطفأ من القهر!..

مشى نحو الباب، لحقت به وأمسكت بثيابه: أتوسل إليك.. انظر إلى الساعة.. إنها الواحدة بعد منتصف الليل.. هيا عد إلى فراشك، احلفك بحياة أولادك لا تخرج من البيت.

نظر إليها بعينين تائهتين في عالم آخر، واضعاً إصبعه على فمه قائلاً: هس!! انصتي قليلاً.. ألا تسمعين صوت الأرض؟!.. انها تناديني، هي لا تحيا بدوني.. العشب اليابس أكلها وقطع أنفاسها.. أشجار الإجاص والعريش والتين والزيتون، بحاجة «لنكش» التربة حول جذورها كي تتنفس.. موسم زراعة «الصيفي»١- اقترب ويجب أن تكون الأرض جاهزة..

صرخت به: يا رجل نحن الآن «بكوانين».. ألآ تسمع عصف الرياح وصوت المطر، و«طرطقة المزاريب»، وحالة الطقس تنبئ بسقوط الثلوج.

أجابها: يبدو أن حالة «الخرف» قد أصابتك باكراً.

خفضت نبرة صوتها وقالت بلهجة هادئة، في محاولة لإقناعه: يا عيوني، دع هذا المعول وعُدْ إلى فراشك «الصباح رباح».. حين يطلع الضوء سأرافقك إلى الحقل..

ولكن كلامها تبدد مع العاصفة التي تزمجر في الخارج، وكأنها تكلم نفسها..

لم تلتقط حواسه الغائبة حرفًا من توسلاتها، فخرج مسرعاً صافقاً الباب خلفه بقوة..

فتحت الباب، نادته، صرخت عليه بأعلى صوتها.. أجابها صفير الرياح الذي اقتحم المنزل وكأنه زعيق الشر..

نظرت من خلف النافذة، الظلام دامس، العاصفة تزمجر.. نباح الكلاب الشاردة يثير الرعب.. صفع عينيها وميض البرق.. عصف في روحها عويل الرعد..

انفجرت بالبكاء.. تكلم نفسها: يا إلهي ساعدني.. الرجل فقد عقله تماماً.. ماذا أفعل؟..

الثلوج بدأت تتساقط..

أولادي!.. أين أنتم يا أولادي؟!.. إلى من الجأ في هذا الليل المخيف؟.. من يسمعني والبيت ناءٍ عن بيوت الضيعة؟.

استمرت واقفة خلف النافذة، حتى بدأ الفجر بالبزوغ كاشفاً عن طبقة سميكة من الثلوج.. وزوجها لم يعد..

حدقت في الـرداء الأبيض الذي غطى الأرض، وغطى قلبها بالأسود.. أخذها خيالها إلى زمن جميل مضى:

***

(ارتفع صراخ أولادها الثلاثة مبتهجين فرحين حين استيقظوا وشاهدوا ما فعلته الطبيعة أثناء نومهم:

- ثلج.. ثلج.. اليوم عيد السماء يا أمي.

أخذوا يقفزون على الثلج وضحكاتهم تسابق الريح..

تجعل الزمهرير أغنية.. والثلج عيداً وحياة.. يوم الثلج كانوا يطلقون على اليوم المثلج: «عيد السماء»..

نادى عليهم والدهم: هيا يا أولادي.. اسرعوا معي إلى الحقل.. أغصان الزيتون لا تحتمل ثقل الثلوج، يجب نفض الثلج عنها بسرعة كي لا تتكسر..

وأشار إلى أكبر أولاده مبتسماً: وأنت أيها «الضابط» سر أمامي وكفى مشاغبة وإلقاء أوامر).

«الضابط» هو الابن البكر، لقب «بالضابط» منذ طفولته لشدة حماسته وعشقه للعسكر، حتى كادوا ينسون اسمه الحقيقي.. لا ينفك عن الحديث بانه حين يكبر سيكون ضابطًا في جيش بلاده.. كل تصرفاته وكل ألعابه مع رفاقه كان يمثل فيها دور الضابط.. يعبر عن هذا العشق بكتابة نصوص وقصائد للجيش والوطن.. اجتهد وتفوّق من أجل الوصول إلى الهدف المنشود.. وأصبح شابا وسيمًا فارع القامة متين البنية، على درجة عالية من الأخلاق والتهذيب.

جاء الوقت المناسب لتحقيق الحلم.. أُعلن عن مباراة لدخول المدرسة الحربية...

قال لوالده بعد عودته من المدينة حيث قدم أوراقه الثبوتية المطلوبة للامتحان: شاب كان يقدم طلبه للامتحان سألني من واسطتي؟.. قلت له: واسطتي هي كفاءتي فأنا واثق من نفسي ومن قدرتي على النجاح في الإمتحان .. ضحك وقال: إذا لم تدعم طلبك بواسطة رفيعة الشأن لن ترى النجاح.

أعرف رأيك بهذه الأمور يا أبي، ولكن لا بأس أن تكلم أحد المسؤولين.

– تباً له من بلد كل ما فيه يسير «بالواسطة».. حاضر يا ولدي، من أجل مصلحتك سأذهب إلى مسؤول المنطقة، فهو تابع لحزب قوي و»بيطلع بإيدو»..

***

عاد الوالد من زيارة المسؤول، مقطب الجبين، وكأنه عائد من جنازة شخص عزيز.

انقلب فرح الوجوه التي كانت بانتظاره إلى خوف ووجوم:

– ما بك يا أبي؟.. ماذا قالوا لك؟..

أجاب بصوت مخنوق: الله يحقق حلمك وحلمنا يا ولدي.. في الماضي كانت «الواسطة» بطاقة توصية، والآن أصبحت شيكاً أو رزم من الأوراق المالية..

تنهد من الأعماق وقلبه يرتجف خوفاً على حلم العمر الذي يقف في مهب الريح، وأضاف قائلاً: أنا رجل فلاح، لا أملك المال، ولا أنتمي إلى حزب، ولا إلى زعيم.. وأبي لم يكن زعيماً ولا مسؤولا في الدولة، وما اعتدت الانحناء لغير الله والوطن.

هذا المسؤول تاجرٌ فاجر، عديم الأخلاق والوطنية.. ساومني على ثمن تقديم ابني للدفاع عن وطنه.. عجيب أمر هذا الزمن، نقدم دم أبناءنا للوطن، وندفع مسبقاً ثمن هذا الدم لتجار الزعامة والأحزاب..

– لمَ المال والواسطة يا أبي!.. أنا متفوق وعندي كفاءة عالية وواثق من نفسي، سأنجح بالامتحان، وسأكون الأول على الجميع.

– حين قلت له بأنّ ابني شاب متفوق وسيكون فخراً لوطنه..

ضحك مليء شدقيه وقال: هذا كان في الماضي «موضة قديمة» قبل أن تحكم الأحزاب، نحن أولاد اليوم... انتهى زمن الكفاءات... هات المال وخذ رتبة ضابط أو نائب أو أي وظيفة تريد..

قال الشاب وقد بلغ قمة الغضب على ما وصلت إليه حالة البلد بفضل من نصبوا أنفسهم زعماء.. وكل زعيم يترأس حزباً.. وتناسوا أن هناك وطن ومواطن:

– أنت الزعيم يا أبي.. من زرع بزرة الوطنية في أعماق أولاده وربّاهم على حب الوطن والتضحية في سبيله هو الزعيم..

دمعة علقت في عيني الشاب أبت أن تسقط.. ولكن قلب أمه تلقفها فقالت: يجب أن نجد حلاً قبل أن تفلت الفرصة من أيدينا..

قال الأب: ليتني أملك ما أبيعه.

أجابت الأم بكلمات متقطعة وبقلب تسارعت نبضاته خوفًا من وقع كلامها على زوجها: لماذا لا نبيع الأرض؟

كلمات كانت كافية لتصيب الرجل بالجنون.. فصرخ بها: الأرض.. أبيع الأرض؟.. هل تريدينني أن أبيع كرامتي وأولادي وجدي وأبي.. ألا تدركين ما تقولين يا امراة؟.. إياك أن تتفوهي بهذا الكلام ثانية..

.***

جلس الفلاح في ظل سنديانة هرمة، أسند رأسه إلى جذعها.. لا زالت أنفاس والده هنا تحت ظلالها.. داعبت أصابعه التراب... هذا التراب كم شرب من عرقه ومن عمره منذ نعومة اظفاره!.

«لا لن أبيعك؟.. لن يدوس هذا التراب غير أولادي.. ليتني يا ولدي علمتك مهنة الفلاحة وتقليم الأشجار كجدك وأبيك.

***

عاد إلى منزله ليجد زوجته ملهوفة بانتظاره تضرب كفاً بكف: حالة الصبي سيئة غير مطمئنة، وموعد بدء الامتحانات في الحربية قد اقترب. . يجب أن

تتصرف يا رجل.. لماذا لا تبيع قطعة الأرض وتؤمن مستقبل أولادك؟.. قريبا سيذهبون إلى المدينة وسيدخلون الجامعات ويحتاجون مصاريف باهظة.. هل أتينا بأولادنا إلى الحياة كي نحرمهم إياها حين يكبرون؟.. ماذا ستفعل لك الأرض وأولادك بلا مستقبل؟.. ألا ترى حالة ابنك؟..

– اسكتي.. الأرض هي دمي وشرفي ولن أبيعها.

استمر الجدال.. واستمرت حالة الشاب الصحية والنفسية في تدهور.. انسلاخه عن حلمه الذي حمله منذ الطفولة أصابه بصدمة أدمت روحه، وبددت عقله.. شعوره بأن هناك أيد شريرة تدمر حضارته وتاريخه وانتمائه وتبني وطناً مزيفاً خاصاً بها يفصله عن وطنه الحقيقي أثار فيه اليأس وأطاح بحواسه.

رمى بكتبه صارخاً: لمن أدرس، لمن أتعب؟.. طالماً لن أجد مكاناً لي في وطني؟.. إنه ليس لنا، ليس لأمثالنا..

يغادر البيت قبل طلوع الشمس ويسير هائما في الحقول، ثم يعود حين يحل الظلام وينزوي في زاوية من المنزل مفتح العينين يحدق في الفراغ.. بدا هرماً محطماً..

***

كان على الوالد أن يختار بين ابنه والأرض.. فاختار ابنه وباع الأرض.

عادت الحياة إلى الشاب، ولكنها غادرت قلب أبيه وانتقلت إليه حالة اليأس التي كان يعيشها ابنه..

يكلم نفسه: أنا فلاح ولكني بلا أرض... ماذا أقول للمواسم حين تأتي ولا تجدني في استقبالها.. ماذا أقول لك يا أبي؟.. سامحني، أنا لست رجلاً لأنني لم أنفذ وصيتك!

بدأ الشاب مباريات الدخول.. مرَّ بكل الامتحانات بنجاح.. بقي إعلان النتيجة رسميا والنتيجة بالنسبة له مؤكدة حتما النجاح..

العائلة تنتظر النتيجة وهم على يقين تام بأنها ستكون النجاح.. فالمال دُفع والواسطة تمّتْ، والشاب قدم امتحاناته على أكمل وجه..

ولكن النتيجة تأخرت.. وعند سؤال المسؤول الوسيط يجيب: قريبا ستعلن النتائج وسنبلغكم بالأمر.

بعد أيام أرسل المسؤول في طلب الوالد.. قال له: ابنك متفوق، ونعم التربية...

رقص قلب الوالد فرحاً.. كلام النائب تلميح عن الخبر السعيد: نعم ابني سيكون فخرا لوطنه..

– طبعا كلنا نفتخر به.. ولكن؟..

ارتعد الوالد: ولكن ماذا؟...

كانت إجابة المسؤول الحزبي بأن ناول الفلاح المبلغ الذي دفعه لقاء نجاح إبنه.. وناوله من جهة اخرى طعنة قاتلة من فمه:

- ابنك نجح بكل الامتحانات، ولكن قريب أحد الزعماء أخذ مكانه من أجل التوازن الطائفي.. ليس باليد حيلة.. في الدورة القادمة سيكون حظه أوفر.

عاد إلى البيت منهاراً محطماً، عيناه الحمراوان تنبئان عما ذرفتا من دموع.. كان الجميع بانتظاره ليزف لهم البشرى.

أمسك بالأوراق المالية يفتحها رزمة رزمة، ويذريها في الهواء قائلاً:

- أنا!.. ومن أنا؟.. فلاح بلا أرض.. هذه أرضي، أصبحت أوراقاً.. هذا وطني لا يساوي أكثر من أوراق... هذا أبي أصبح أوراقاً... هذا إبني الضابط أصبح أوراقاً.. الشعب مجرد أوراق يكتبون عليها قدره يبيعون ويشترون به.. زمن من ورق..

من يحرق هذا الزمن!.. لتعود إلينا كرامتنا.

***

وجد الفلاح نفسه وحيداً.. خاوي الروح من الأبناء والأرض..

تمر المواسم وتطفئ منه النبض تلو النبض..

سافر ابنه «الضابط» بعد أن وجد نفسه غريباً في وطنه فاختار الغربة بحثاً عن هوية وعن وطن لا يدمر مستقبل وأحلام أبنائه.. تبعه إخوته..

لم يحتمل الفلاح الصدمة بعد أن خسر كل شيء.. أصيب باختلال عقلي، أصبح يعيش الماضي منفصلاً تماماً عن كل ما يمت للحاضر بصلة..

كان يصاب بنوبات جنون.. يهيم على وجهه في الحقول والجبال، فينطلق بعض أهل القرية في أثره ويعيدونه إلى منزله..

ولكنه هذه المرة لم يعد.. عثروا عليه متجمداً من البرد تحت السنديانة الهرمة التي كانت له يوماً.

***

(الصيفي... خضار تنمو صيفاً دون ري كالحمص والمقتي والخيار والفول.)..

الانتحاري... والفول

حديث سري يدور بصوت منخفض بين أمير تنظيم إرهابي ومساعده الخاص..

- هل جهزت «الإنتحاري» الذي طلبته منك ايها القائد؟..

سأل الأمير مساعده.

نظر إليه القائد نظرة ماكرة.. مزهواً بنفسه وبنجاحه بتنفيذ ما طُلب منه على أكمل وجه، وبما ينتظره من مكافأة كبيرة على عمله قائلاً: لقم تم الأمر يا سيدي.. العملية تكللت بالنجاح الباهر.. وشفي هذا الأبله من كل ما يربطه بالدنيا..

قال الأمير ويده تداعب لحيته الطويلة التي تلهو الشياطين بين شعيراتها، مبتهجاً بما سيناله من ثقة الجهة التي أوكلت إليه مهمة تنفيذ مخططاتها الإرهابية: هل استئصلتم الدماغ جيداً.. إياكم أن تكونوا تركتم أثراً قد يعود من خلاله إلى تشغيل عقله.

أجاب القائد ضاحكًا: اطمئن.. استأصلنا الدماغ والقلب معاً.. حولناه من مخلوق بشري إلى وحش يدب على أربعة، كاللذين مرّوا من قبله..

وأردف مبتسماً: إنه الآن في عالم آخر، لا يصدق ما وصل إليه من مكانة عند الله..

تعال يا سيدي وشاهد بنفسك.. ها هو «الأخ» الجديد واسمه سعيد الذي يجلس تحت الشجرة، انظر إلى ظهره كيف احدودب من الإيمان المزعوم.. بعد قليل ستتلمس النتيجة المذهلة، إنه ولد طري العود، لم يأخذ معنا وقتاً طويلاً لتدجينه.

قال الأمير غامزاً: هل اشعلت له البخور؟..

– طبعًا بخور الجنة.. سرى في دمه بسرعة وأوقف حواسه عن العمل.

– هل أجريت له اختبار الذبح.

– طبعًا وعلاماته فوق المئة.. اكتشفت أنه يستعمل السكين بمهارة غريبة.

– أحسنت.. إنك قائد مخلص لعمله وتستحق التقدير.. سأرفع لك التعريفة عن كل رأس، وسأطلب ترقيتك من القيادة العليا..

وأردف: هل هذا الحمار المدعو «سعيد» جاهزٌ للبدئ بالإمتحان..

– نعم يا سيدي إنه على استعداد تام.

– إياك أن تكون قلصت له عدد الحوريات اللواتي بانتظاره..

انفجرا بالضحك..

– وأنا بدوري أيها القائد المخلص سأدعو لك في صلاتي أن يضاعف لك الله عدد الحوريات لأنك تستحق..

وعادا إلى الضحك..

أجاب القائد: خذهم أنت يا سيدي يكفيني ما لدي من حوريات وعذارى على الأرض.. انقطع حيلي..

– اسكت انتبه.. هناك «أخ» قادم نحونا..

بلمح البصر انقلبت الأدوار..

انحنى القائد على يدي أميره يقبلهما، ويطلب منه الرضى والتبريك، متمتماً بالادعية والصلوات ليحفظ الله أميره المفدى الذي أرسله الله لنصرة الحق ضد الكفرة الذين يعصون الله ويزرعون الشر والفساد في بلاد المسلمين..

اقترب «الأخ» ونافس القائد بتأليه الأمير وبتقبيل يديه وأخذ البركة منه..

قال الأمير بصوت رخيم: بارك الله بكما.. أنتما من أهل الفردوس بإذنه تعالى..

قال القائد: والآن هيا بنا لإجراء الامتحان للأخ سعيد.

***

اقترب الرجال الثلاثة من شاب في السابعة عشر من العمر تقريباً، لم يكتمل بعد نمو شعر لحيته وشاربيه..

كان جالسًا تحت شجرة، يحدق في الفراغ، وشفتاه تتحركان بالتمتمة دون توقف..

السلام عليك أيها الأخ المجاهد..

قفز كالمجنون حين رأى أمير التنظيم.

انحنى يقبل يدي أميره الإلهي بنهم، ثم سجد أمامه مكبراً: الله أكبر الله أكبر..

مسح الأمير المزعوم على رأس الأخ سعيد بحنان مبطن بالقرف وكأنه يلامس حيوان جرب.. ثم قال له والتواضع يقطر من كلماته، وكلمة الله لا تتوقف في حلقه:

– قف يا أخي، السجود لله وحده.. لقد تم إبلاغي بأنك أنهيت فترة التدريب بنجاح تام، وانتقلت من عالم الفجور والكفر إلى قرب الله.. مبارك لك ولنا وللإسلام بهذه المرتبة التي ارتقيت إليها.

قال القائد: والآن مولانا الأمير سيوجه إليك عدة أسئلة ليتأكد من حقيقة إسلامك، بعدها يعلن انتمائك الرسمي للتنظيم، أو يطردك معلناً هدر دمك على أنك من الكفرة والعياذ بالله.

بدأ الأمير بتوجيه الأسئلة: ما هو برأيك عقاب من ليسوا على ديننا، وعقاب من يقفون ضد تنظيمنا الذي أرسله الله لنصرة المسلمين؟

زأر الشاب وكأن السؤال أسيد دلق في حلقه: عقابهم الحرق والذبح والتقطيع إربًا إربًا وهم أحياء دون رحمة.. إنهم حشرات مقرفة، عقابهم الإبادة والدهس تحت أقدام الإخوة المجاهدين الذين سيطهرون الدنيا من آثامهم.

- وكيف يتم ذلك؟

- بالشهادة في سبيل الله.. نحصدهم بالتفجيرات والعمليات الانتحارية ونهاجمهم ونقطع رؤوسهم أينما وجدوا.

انطلقت الأصوات بالتكبير.

وأكمل الأمير أسئلته: والنساء السافرات اللواتي يظهرن شعورهن وأجسادهن؟

جعر سعيد وكأن حيوانات الأرض مجتمعة في حنجرته: هؤلاء الفاجرات حسابهن عسير.. الرجم حتى الموت، تقطيع أوصالهن، دفنهن أحياء.. كل هذا لن يشفي غليلنا منهن.

قال القائد منتشيًا بما يسمع من الأخ سعيد: والآن بعد الامتحان الشفهي الإمتحان الميداني.

بعد موجة تكبير صرخ: أيها الإخوة المجاهدين، هاتوا الأسير..

فتى في الخامسة عشرة من عمره، مكبل اليدين والقدمين، جرجره عدة رجال، ورموا به على قدمي الأمير..

كان يرتجف من الرعب كمن يمسك بسلك كهربائي.. صدره يخفق وكأن قلبه على وشك الخروج من مكانه.

قال الأمير وهو يركل الفتى: هذا الولد مسلم ولكنه كفر بإسلامه.. سمعه الإخوة يسب الله.. استغفرك يا الله..

صرخ الفتى بكل ما استطاع من قوة، ملأ صوته السماء: يا الله. .يا الله.. أنا بريء.. يا الله ساعدني..

كالبرق انقض "الأخ" سعيد طاعناً عنق الفتى، ذابحاً في حنجرته كلمة الله.. ارتفع تكبير غطى حشرجات الفتى الذي استمر "الأخ" بطعنه بوحشية لا يمكن أن تجتمع بغابة من الحيوانات الكاسرة..

قال الأمير وهو مغمض العينين ويداه مرفوعتان إلى السماء بمشهد إلهي: الله أكبر.. الله أكبر.. أرى أمامي الآن فرحة أهل الجنة يكبرون ويهللون لك أيها "الأخ" العظيم.. أرى الحوريات يتراقصن حولك، الله أكبر.

اقترب القائد من "الأخ سعيد" الذي كان دم الفتى يقطر من يديه ويغطي وجهه وثيابه، وربت على كتفه معبراً عن إعجابه الشديد قائلاً: تأكدنا الآن أنك من رجال الله الصالحين.. هنيئاً لك يا أخي.

والآن استعد للإختبار الجديد.. وأردف بصوت مرتفع: أيها الإخوة هاتوا السبايا.

أتوا بثلاثة فتيات صغيرات، لا تتعدى الواحدة منهن الثالثة عشر عاماً.. ثيابهن ملطخة بالدم وأيديهن مكبلة.

قال القائد لسعيد مباهياً: هؤلاء الفتيات السبيات هدية لك من الأمير بمناسبة انتماءك الرسمي للتنظيم.. خصك بهن لفوزك في الامتحان بجدارة، وثبت لديه أنك تستحق أن تكون من رجالنا.. لقد باركهن بجسده الطاهر، كن عذراوات ولم يلمسهن من بعده سواك.. كم لك حظوة عنده لتنال هذا الشرف العظيم!.. انكحهن ما طاب لك واقتلهن إن شئت.. لا تنسَ أن تكبر على الفتيات قبل دخولك بهن..

كان الشاب فاغراً فمه ولسانه متدل أمامه.. فما يراه ويسمعه أكبر بكثير مما يمكن أن يحلم به..

قال متأتئاً: هؤلاء الفتيات لي أنا؟..

أجاب القائد: نعم لك أنت.. أرايت يا أخي كيف يعطيك الله دون حساب كلما سفحت دم كافر؟.. دم كافر واحد ونلت هذا العطاء من الله!.. فكيف بمجموعة كبيرة من الكفار دفعة واحدة؟..

قال رافعاً يديه إلى السماء وقد بدأ الهياج يشعل غريزته: أشكرك يا الله على نعمتك.

– هيا يا أخي.. أدخل بهن على مرأى من الجميع لنرى فحولتك.

أحنى رأسه خجلاً وقال بصوت مرتبك: استغفر الله.. كيف أفعل هذا أمام عيون الآخرين؟

– نفذ دون اعتراض.. إنها إرادة الأمير.. إياك وغضبه لأنه من غضب الله.. إنهن سبايا، ومن حقنا نكاحهن حتى الرضيعات منهن.. ألا تفهم ما معنى سبايا؟

لم يكن قادرًا على استيعاب ما هو فيه .. قال في نفسه: كلام الإخوة صحيح، حين قالوا أن الله سيحقق لي ما لم أكن أحلم به، الآن أصبحت من رجال التنظيم.. ولكن أن يتحقق ذلك دفعة واحدة وبهذه السرعة!. ثلاث فتيات دفعة واحدة لي أنا، وأنال منهن ما أشتهي؟.. ولم يلامسهن رجل سواي بعد الأمير المفدى؟.. وأنا الذي كنت أحلم أن أكلم فتاة؟.. الحمدالله ثم الحمدالله الذي هداني إلى طريق الله..

شكرا لك يا إلهي.. ركع أرضًا وأخذ يصلي رافعًا يديه إلى السماء طالبًا المغفرة على ما فاته من عمر كان بعيدًا عن طاعة الله.

همس الأمير للقائد: هل اعطيته اللازم؟..

- تم يا سيدي سيجد نفسه ثورًا هائجا لعدة ساعات دون توقف.. وأردف هامساً كفحيح الأفعى: سنشاهد أقوى فيلم جنسي يحيي العظام وهي رميم..

هناك حورية في الحادية عشرة من العمر بانتظارك هذه الليلة!.. أعرف شغفك بالصغيرات.. ستصعد روحها إلى السماء من بين أحضانك.

ضحك الأمير: هم لهم حوريات السماء، ونحن لنا حوريات الأرض..

وأردف مشيراً إلى الأخ سعيد: هذا الحيوان أعجبني جداً... نحتاج إلى عملية تفجير بأسرع وقت.. هناك أمر من القيادة العليا بعملية انتحارية تهز المنطقة..

- أمرك يا سيدي.. هذا الحيوان أصبح عبدًا لنا، سيكون جاهزًا خلال أيام..

***

- يا أخ سعيد، الأمير يريدك حالاً.. قال أحد الأخوة.

ارتعب الأخ سعيد متسائلاً: هل أخطأت في شيء ويريد معاقبتي؟..

وقف بين يدي الأمير خاشعاً مطأطيء الرأس.

- ارفع رأسك يا أخي فأنت قريباً ستكون من أهل الجنة.

- أمراً وطاعة يا مولاي.

- يا أخي في الله.. وحي أتاني الليلة بعد صلاة الفجر، أنبأني بأن الله غير راض عنا، فمنذ فترة لم نطهر الأرض من بعض الأنجاس والكفرة.. وقد ظهر لي اسمك، يبدو أن الله اصطفاك من بين جميع الإخوة للقيام بالعملية الانتحارية لتكون الفائز بالشهادة والفردوس.. كنت أتمنى أن أكون مكانك ولكني سألقاك قريباً.

سجد سعيد أمام الأمير ودموع الفرح سالت على حذائه: أنا جاهز يا مولاي..

- مبارك لك يا أخي.. على بركة الله.. العملية غداً بإذن الله.. غداً ستنطلق إلى حيث سيكون الأنبياء والأولياء وحور العين بانتظارك على باب الجنة.. كبسة زر وتصعد روحك الطاهرة إلى السماء.. لا تنس أن تبلغ تحياتي إلى الإخوة الشهداء الذين سبقونا..

سيتولى القائد بقية التفاصيل.

***

لم يستطع النوم.. قضى الليل سعيداً يحلم بما ينتظره في العالم الآخر.. شيئ واحد كان ينغص عليه فرحته، سيرحل من الدنيا الفانية دون أن يودع أهله..

قال في نفسه: لا بأس سأطل عليهم من الفردوس، وأرسل إليهم دعواتي من هناك.. شهادتي في سبيل الله ستترك لهم إرثاً وحظوة عند الله.. سيغير حياتهم ويرزقهم من حيث لا يعلمون. ثم تنهد من أعماقه: ارزقهم يا الله..

استعرض بخياله ما عاشه من سنين معهم:

عشرة أفواه جائعة، العدد يرتفع باستمرار، فبطن أمه وزوجة أبيه في حالة انتفاخ دائمة تحضيرًا لإفواه جديدة.. النسل هبة من الله كما يقول والده.. فكيف يرفض هذه النعمة ويوقف الإنجاب!»..

تذكر السنين التي عاشها في الذل والعوز، وكيف كان يقف بطوابير طويلة مع إخوته لينالوا صحن طعام ساخن من تلك الولائم التي تقام في المناسبات الدينية للفقراء..

مناسبات الموت كانت مصدر فرح لأبيه، يمسح على بطنه قائلا: الله يبعت الرزق..

يُرسل أولاده ليرابطوا حول بيت الميت لعدة أيام.. يأتونه ببقايا طعام وبعض المال على روح الميت.

حين كبر قليلا وجد له أبوه عملا عند جزار في الحي.. اكتشف الجزار أن الصبي ماهر باستعمال السكين فأوكل إليه مهمة الذبح في الملحمة.

في يوم جاءت أخته البالغة من العمر ثلاثة عشر عامًا، أرسلها والدها لتأتي ببعض اللحم من أجرة أخيها.

وقع نظر الجزار الكهل عليها فأعطاها قطعة كبيرة من اللحم قائلاً لها: قولي لوالدكِ أنني أريده حالاً لأمر ضروري.

لم ينتظر الجزار طويلا.. أتى أبو سعيد بسرعة، انهال على الجزار بسيل من الأدعية لقاء ما أرسل إليه من اللحم.

وكانت المفاجأة السعيدة التي جعلت أبو سعيد يرتجف من الفرح الذي كان أكبر من قدرته على استيعابه..

الجزار طلب يد ابنته للزواج!..

وافق بسرعة قصوى، غير مصدق ما حظي به من نعمة اللحم والمهر والنسب الذي سيُحسد عليه!.. زوج ابنته «جزار» وغارق في اللحم حتى أذنيه.

سيأخذ «الجزار» لحم ابنته ويعطيه لحم الضان اللذيذ، وسيملأ جيوبه بمبلغ محترم من المال مهرًا لها».. قائلاً في نفسه: كم أنت كريم يا الله.

وتمت الصفقة..

بعد أيام وصل سعيد إلى عمله في الملحمة، وجد صهره «الجزار» يرغي ويزبد ويشتم.. قائلا: هربت أختك المصونة.. شتمتني قبل خروجها من بيت الزوجية قائلة: أكرهك لن أعود إلى هذا المكان القذر.. بيتي أصبح قذراً بنظر بنت القصور والحسب والنسب!!.

أجاب وقد استعر غضباً من تصرف أخته المعيب: هربت!!.. كيف هربت، وإلى أين؟..

- أتسألني يا ولد؟.. اسألوا أنفسكم.

انطلق سعيد عائداً إلى البيت صارخاً بوالده: ابنتك هربت من بيت زوجها.. العاهرة خُربت بيتنا!

صرخ أبو سعيد كمن تلقى خبر إفلاسه ومصادرة أملاكه: قسماً بالله.. لأشرب من دمها.

خرج إلى الحي يبحث عنها ووجدها!.. كانت تقف مع فتيات من عمرها تحدثهم وتبكي، فهجم عليها وأمسك بها من رأسها دون وعي، وأخذ يلوح بها يهزها يميناً وشمالاً كالثور الهائج: تهربين من زوجك يا حقيرة.

سحبها عنوة وهي تبكي وتصرخ: لا اريد العيش مع هذا الحيوان، خلصني منه يا أبي.

كان جوابه صفعة قوية ألقتها أرضاً، تبعها بعدة ركلات من قدميه: تريدين أن تفضحينا مع ولي نعمتنا وتلحقي بنا العار؟

جرها إلى حيث زوجها في الملحمة، كان الزوج غاضبًا من فعلتها، معتبرًا تصرفها إهانة لكرامته وشرفه وخروجاً عن طاعته.. «لم تجرؤ واحدة ممن تزوجهن على فعل هذا»..

قال له أبو سعيد متوسلاً: سامحها، سأعلمها كيف تفهم قيمة أسيادها.. اقتربي يا بنت، قبلي يدي زوجكِ وقدميه واطلبي السماح والرضى منه.

جعر الجزار كالبقرة لحظة ذبحها: لن أسامح هذه القذرة التي شتمتني وجعلتني سخرية للناس..

صرخت الفتاة باكية: لا أريده، لا أريده.

عدة ضربات سقطت على وجهها وأنحاء جسدها: أيتها الفاجرة، هو زوجك أمام الله، وله الحق الكامل أن يفعل بك ما يريد.. التي لا تطيع زوجها وتخالف أوامره مصيرها الحرق في جهنم.. سأدخل النار بسببك، أنتِ مسؤولة مني امام الله، وأنا أتحمل ذنبك.

صرخت الطفلة: أكرهه لا أطيقه، إنه يفعل بي أشياء فظيعة.. هذا حيوان..

سقطت كلمة حيوان في أذني الجزار الكهل كالصاعقة: أنا حيوان يا عاهرة يا جائعة يا ابنة الشحاد.. ابنتك طالق، خُذها وخذ ابنك معك، استغنيت عن خدماته، واغرب عن وجهي وإلا ذبحتها أمامك!. ولا تنس أن ترسل لي المهر الذي أخذته مني، وسأسامحك بثمن اللحم الذي غسلت به صدأ بطنك.

اختلطت حواس أبو سعيد: المهر.. تريد المهر؟.. أي مهر؟.. ألا تفهم بالشرع والدين؟.. أنت تزوجت ابنتي وطلقتها وهذا حقنا الشرعي.

– ومن قال لك إنني أخذت حقي الشرعي من ابنتك المصونة ابنة العز والدلال!.. ثلاثة أيام لم استطع ملامستها.. قلت أصبر عليها لأنها صغيرة وخجولة، عاملتها باللين كما أوصانا الله بمعاملة النساء حتى يذهب خجلها ولكن دون جدوى، ثم كشف عن صدره..

– انظر كيف حفرتني بأظافرها.. وأردف ساخرًا: يبدو أنها ليست عذراء، خافت أن أدخل بها وينفضح أمرها!.. أنسيت أنك تترك ابنتك تدور في الشوارع تلتقط رزقها؟..

كان سعيد يبتلع ما يسمع من إهانات وتحقير من الجزار، ويشتعل غضبه على أخته التي جلبت لهم العار .. شعر بمرارة الذل لأول مرة، ولكن كلمة

«ليست عذراء» طعنة أصابته في الصميم، فانتفض لشرفه وانقض على اخته وغرز سكينة في عنقها، امتزج دمها بدم نعجة ذبحت بنفس السكين.

***

انطلق صباحًا مزنرًا بحزام ناسف، بعد أن صلى عدة ركعات بنية التوفيق.. الأمير والقائد كانا في وداعه..

قدم له القائد حبة دواء قائلاً: هذه تمنع عنك الصداع، فأنت لم تنم ولم تأكل منذ البارحة..

حمّلوه بعض النصائح والتوجيهات، والتبريكات.

سار مفاخراً بنفسه، خطواته تكاد لا تلامس الارض، شعر بأنه أعلى شأنًا من كل البشر..

كان لا يزال في شرايينه طعم الفتيات الثلاثة اللواتي اغتصبهن بوحشية لعدة ساعات دون توقف، ضحك في سره متسائلا: من أين أتيت بهذه القدرة العجيبة يا سعيد؟.. ما قمت به مع الفتيات يوازي فحولة عشرة رجال؟..

أجابه صوت من داخله: إنه الله يا سعيد الذي اعطاك هذه القدرة، أنسيت أنك من رجاله!

بدأ الحيوان في داخله يستيقظ حين عاد خياله إلى تلك اللحظات، ولكنه عاد إلى هدوئه واعداً نفسه باقتراب الوصول إلى الفردوس المنتظر.

كانت الساعة تقارب التاسعة والحركة خفيفة في الشارع الشعبي الفقير.. وموعد التفجير في الساعة العاشرة.

أزعجه الأمر، يجب أن يحصد أكبر عدد من أعداء الله ..

شعر بالجوع.. تساءل: لماذا لا أتناول بعض الطعام قبل أن أصعد إلى جنات الخلد؟.. وحتى ترتفع وتيرة الحركة في الشارع...

تذكر كلام الأمير، الشهادة الحقيقية تحتاج بِركة من الدماء.. كلما اتسعت كلما اتسع مكانك في الفردوس..

دخل إلى محل صغير لبيع الفول، جلس إلى طاولة مركونة أمام المحل.. «لطالما حلم بالجلوس إلى طاولة في مطعم والطعام يصل إلى أمامه».. أحسّ بالزهو حين أتاه «الفوال» بصحن الفول وجاط من الخضار.. رغم طوابير الذباب التي تحوم حول الطاولة.

أكل الفول بنهم.. طلب صحن آخر، أكل كل ما في جاط الخضار ولم ينتبه للأوساخ اليابسة بأطراف الجاط..

كان يأكل دون أن يشعر.. ففكره شارد بالشارع يرقب مكانًا تكتظ فيه الناس.. حيث ستنطلق روحه منه إلى السماء.. وكيف سيكون لقاؤه بالأولياء والصالحين والشهداء وحور العين الذين ينتظرون استقباله..

شعر بالتخمة، توقفت يده عن رفع آخر لقمة كان يغمسها بما بقي في الصحن من فول.. فجأة صرخ «بالفوال» بأعلى صوته وهو يحدق في الصحن متقززاً:

– ما هذا أيها القذر؟

– ما بك يا هذا؟..

– انظر.. جزء من صرصور في الفول..

اقترب الرجل منه ماسحًا يديه بثيابه المتسخة التي لم يعد يُعرف لونها الحقيقي.. قائلا دون اكتراث:

– لا عليك لن آخذ منك ثمن الفول.. اذهب في طريقك.

– أيها القذر سأذبحك..

– يا ولدي اتق الله المسامح كريم.. أمس وضعت السم للصراصير والفئران التي تغزو المحل، ويبدو أن هذا الصرصور أفلت من السم وتسلل إلى حلة الفول.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. استغفر الله العظيم.

لم يسمع ما قاله «الفوال»، كان في حالة تقيؤ شديدة.. انتفخ بطنه.. الحزام يشد معدته وصدره حتى الاختناق.. شعر بحاجة ملحة لقضاء حاجته.. لا يوجد مرحاض في دكان الفول.. ماذا يفعل.. خرج وهو يتلوى ألما ..

ارتمى أرضا في زاوية زاروب ضيق إلى جانب كومة من القمامة، المغص يمزق احشاؤه... أخذ يخور كالبقرة عند ذبحها.. نسي الحزام.. الألم اطاح بحواسه.. أنساه الجنة وما فيها.. انقلبت كل أحلامه إلى شيء واحد، الدخول إلى المرحاض.. يبدو الفول مسموما!.. انفجرت معدته.. تبللت ثيابه، غرق بأقذاره.. أصبح مقرفًا كجرذ ميت.. الرائحة النتنة تفوح منه..

كلما أقترب أحد المارة لمساعدته، يسد أنفه ويولي هارباً..

حاول من حلاوة الروح أن يفك الحزام، ولكنه مشدودًا بطريقة لا يمكن فكه إلا بمساعدة الغير.. فكر بتفجيره ولكنه سيذهب لوحده لا أناس حوله، وشهادته لن تقبل عند ربه بل سيحاسبه لأنه سيعتبرها انتحار وقتل نفس.. هذا ما قاله له الأمير.

اقترب منه احد الباعة: ماذا بك يا ولدي؟..

قال وهو يكاد يلفظ أنفاسه ووجهه يميل إلى اللون الأزرق: تسممت من الفول.. أرجوك ساعدني.. خذني إلى الطبيب.. إنني أموت.. لا أعرف كيف اتصرف..

تذكر الحزام الناسف.. سأل نفسه: كيف أذهب إلى الطبيب؟ سيرى الحزام.. إنه يخنقني يجب أن أتخلص منه..

اقترب البائع منه.. كان غارقًا في قذارته والاستفراغ يغطي وجهه وملابسه.. ابتعد عنه متقززا..

قال بصوت متحشرج وكأنه يلفظ أنفاسه، فغازات معدته حبسها الحزام فصعدت إلى القلب: أتوسل إليك فك لي هذا الحزام، إنه يعصر أمعائي ويضغط على قلبي.. استحلفك بالله والأنبياء أن تساعدني..

اقترب الرجل أمام هذا الرجاء ليساعده.. وما إن فك له أزرار القميص حتى هرب مهرولًا يصرخ كالمجنون: انتحاري.. انتحاري... وفي لحظات كان كل من في الشارع يهربون..

جاء رجال الأمن صرخوا به لم يتحرك.. اقتربوا منه بحذر شديد ولكنه كان قد فارق الحياة..

قال أحد رجال الامن بعد تعطيلهم للحزام الناسف مشيرًا إلى الجثة:

- ارفعوا هذه الجيفة وارموها على المذابل.. لا تدنسوا المقابر بها..

***

بائع روحه

صوت التلفاز الذي قامت زوجته بتشغيله قبل خروجها كي يتسلى ريثما تعود من زيارتها... ضجيج، يسحق ما بقي من أعصابه المتعبة..

تأفف: ليس لي قدرة على الوقوف.. تباً لي!.. هل كان يجب ان أحطم «الكونترول» في لحظة غضب!..

ما أقسى الرقود في سرير المرض.. أيها المرض اللعين، أما شبعت من التهام جسدي، ومن سفك دماء روحي؟!..

ماذا فعلت لك لتفعل بي كل هذا؟!

فجأة قفز كالسهم من سريره، ليقف أمام شاشة التلفاز، محدقاً فيها بذعر.. حواسه لم تستطع استيعاب المشهد، قرَّب وجهه من الشاشة أكثر.

إنه هو.. ذلك الرجل!!.. يتسلم جائزة أفضل ديوان شعري لهذا العام، وسط عاصفة من التصفيق..

انتهى عرض المشهد ليظهر الرجل متصدرًا الشاشة في لقاء تلفزيوني..

ها هو يجيب ببراعة وبكل ثقة على أسئلة مقدمة البرنامج.. يخبر الجمهور عن الجائزة التي نالها وفحوى قصائد الديوان.. وأبحر في الحديث عن طفولته التي بدأ منها عشقه للقلم، وعن أجواء الكتابة المحببة لديه..

لم ينس أن يزف للناس خبر صدور ديوانه الجديد قريباً والذي هو تحت الطبع.. تحدث باسهاب عن المستوى المتدني للساحة الثقافية في هذا العصر، وأعلن بانه أخذ على عاتقه العمل للنهوض بمستوى الكلمة في عالم الشعر والادب والثقافة في البلد.

بين كل سؤال وجـواب كان يلقي بعضاً من قصائده بانفعال وإحساس.. بدا وكأنه يذوب مع الكلمات..

لم يحتمل الرجل ما يرى على الشاشة.. شعر بأحشاءه تتمزق من الغيظ.. فوحده من يعرف حقيقة هذا «الشاعر الكبير»..

ضرب كفًا بكف، وكأنه يصفع القدر الظالم الذي قام بتأليف وإخراج هذه التمثيلية القاتلة صارخاً: أيها اللص الحقير!..

ما عادت قدميه قادرتين على حمله، فجرجر جسده الهزيل إلى السرير.. وقع نظره على علب الدواء المكومة بجانب سريره.

بركان تأجج في أعماقه.. أحرقه المشهد. فأخذ يقذف بالأدوية في أنحاء الغرفة، والى وجه «الشاعر الكبير» الذي لا زال يتحدث..»

«أيتها العلب البشعة! أيتها القاتلة!.. سرقتِ مني تاريخًا قضيته هائماً بين القلب والقلم، أسكب روحي قصائدًا فوق الورق.. أتلوها صلاة في زمن غير قابل للحب.. أجمع الحصاد من بيادرالمشاعر.. أنثرها خبزًا لجياع الكلمة.

***

عادت به الذاكرة إلى ذلك اليوم المشؤوم.. كان مرميًا على سرير في مستشفى حكومي.. صوت الطبيب يمزق أذنيه:

- يجب إجراء العملية بسرعة.. حياتك في خطر، المرض بدأ يتمدد.. العملية مكلفة جدًا، عليك ان تتدبر الأمر..

قفزت من عينيه دمعة اختصرت ملح البحر، مريرة كمصيره المتأرجح بين الأرض والسماء...

العملية تحتاج للمال، والمال مفقود.. إنه أديب وشاعر، ثروته نتاج فكر مخبأة بين طيات كتبه، وفي قلوب قرّائه.. من أين له بتلك الأوراق الملونة التي تخول حاملها تخطي المستحيلات.

***

زائر غريب جاء لزيارته في المستشفى، سبقه عطره إلى الغرفة.. وقف أمام سريره بأناقته المفرطة قائلًا:

– مساء الخير شاعرنا الكبير.. ألف سلامة لقلبك .. لا عليك الطب تقدم ولكل داء دواء..

... نظر إليه مستغرباً.. انقلب الاستغراب إلى ابتسامة متحدية للوجع..

«الصحافة تناولت خبر مرضي.. وأخيرًا سألوا عني؟.. يبدو أن هذا الرجل مرسلاً من جهة رسمية للإطمئنان عن صحة من رفع اسم بلده عاليًا، ومساعدتي على العلاج!..

– أهلا وسهلا.. تفضل يا سيدي..

تفقد الرجل المقعد قبل الجلوس عليه ليتأكد من نظافته..

– شكرًا لك.. اخبرني عن حالتك أيها الأديب الكبير، وما الذي تحتاجه للعلاج..

شعور بالأمل دفع القوة في جسده العليل، فاستوى في جلسته متمتماً: كم أنت كريم يا الله!..

أفضى للرجل الأنيق بتفاصيل حالته المرضية مستعرضًا الآمه ومعاناته مع المرض، ووضعه المادي المزري، وعن الجهد الذي بذله

لإيجاد سرير له في مشفى حكومي الأدوية فيه مفقودة للفقراء وحاضرة للميسورين مادياً.. وشدد منتقدا إهمال شخصية أدبية مثله من قبل الجهات المختصة.. وتمادى في شكواه للرجل الأنيق، وكأنه فرج أتاه من الله لينقذ حياته..

لم تغب ابتسامة الرجل عن وجهه طوال الوقت، كان يستمع بصمت ويهز رأسه مستنكراً، إلى أن فجّر في وجه المريض الهدف الذي جاء من أجله.. فقال:

– أنا هاو شعر، الله اعطاني من المال الكثير، وحققت كل ما أريده في الحياة، ولكن حلماً واحداً لم احققه بعد.. هو أن اصبح شاعرًا...

– أستطيع مساعدتك إذا كان لديك محاولات شعرية..

– لا.. ليس لدي جلد على هذه الأمور، طالما أستطيع الحصول عليها جاهزة..

شعر الشاعر بالغيظ.. «ماذا يقول هذا الرجل؟.. أيظن نفسه «سوبر ماركت؟».. أو أنه مختل عقليا؟..

– لم أفهم قصدك يا أستاذ.. أرجو التوضيح..

– طبعًا سأوضح لك الأمر وهذا ما جئت لأجله.. أنت الآن تحتاج لعملية وعلاج وأدوية ومصاريف معيشية كي تعيش.. أليس كذلك؟..

- نعم كلامك صحيح..

- هل وجدت مساعدة من أية جهة؟

- كل ما وجدته وعود كاذبة..

- سترى أني الوحيد الذي سيقف إلى جانبك في محنتك.. لذلك أعرض عليك شراء كتابك الجديد الذي أعلنت عن صدوره قريبًا، بمبلغ كبير لا تحلم به..

صرخ الشاعر به بأعلى صوته:

- اخرج من هنا أيها الوقح الاستغلالي.. أنت وكل مالك لا تساوي سطرًا في كتابي..

ابتسامة ساخرة ارتسمت على وجه الرجل.. رمى إليه ببطاقة عليها رقم هاتفه قائلًا قبل خروجه: أنا متأكد بأنني سازورك قريباً.

***

مرت أيام وحالته الصحية في تدهور سريع.. في ظل عدالة ميتة في بلاده.. واستمرت إرادة الحياة تحلّق خلف حلم هَرِم أثقلت كاهله وعود كاذبة..

بدأ يتأرجح بين الحياة والموت على سريره في المستشفى الحكومي.. ما عاد له القدرة على احتمال الألم، ولا شراء أدوية باهظة

الثمن لتبعد عنه أنياب الوجع.. باع ما يمكن بيعه، وما عاد أمامه إلا روحه، سيبيعها ليشتري الحياة.

أكف بيضاء امتدت من أعماقه.. مسحت وجهه وعينيه «لا تحزن.. في داخلك نبع إبداع لا ينضب.. ستكتب وتكتب من جديد.

***

جاءت الرياح كما تشتهي سفن التاجر، وتمت الصفقة بواسطة محامي أتى به إلى المستشفى..

اقترب منه المحامي مادًا يده بورقة البيع ليوقعها.. بيد متورمة مزرقة من الإبر والأمصال، حمل القلم، ولكنه سقط من يده..

قال التاجر الذي كان على عجلة من امره: هيا وقع عقد البيع.. ما بك يا رجل؟..

ضم أوراق كتابه إلى صدره.. إنه يوم الوداع.. اليوم ستحترق أوراقه لتتبعثر رمادًا في غرف العمليات وعيادات الأطباء والأدوية.

غادرت الكلمات سطورها، وتدافعت عيون الحروف محدقة إليه، وانغرز حبرها في عينيه:

«أهكذا تتخلى عني!.. عن روحك، عن حبيبتك ورفيقة نبضك.. كم اقتحمت أغوار عقلك وقلبك!..أجول في أحلامك، في جنونك،

في حزنك وفرحك، في غربتك، في إبحارك بأعماق الوطن والناس!.. كنت طوع حبرك، لم أخذلك يومًا.

صوت زوجته يؤنبه: هيا وَقِع العقد، ماذا تنتظر؟.. ستشفى وتكتب الكثير من الدواوين..

حمل القلم ثانية.. تردد.. شعر بأيد كثيرة توثق يده إلى القلم.. والديه العجزة وأمراضهم المزمنة.. زوجته التي عانت من الفقر معه.. أولاده الثلاثة الذين يحتاجون مصاريف لإكمال دراستهم.. صاحب المنزل الذي يهدد يوميًا برميهم إلى الشارع بسبب عدم دفع الإيجار منذ أشهر.. أصحاب الديون التي تراكمت بعد ان أقعده المرض عن العمل..

تأبط الرجل الكنز الذي اشتراه.. ناوله كيسًا مليئًا برزم من المال.. هكذا كان الاتفاق القبض نقدًا وليس شيكًا..

تلقفت زوجته الكيس دون أن تستطع إخفاء فرحتها ودهشتها.. كل هذا المال مقابل كدسة من الأوراق!

وقبل أن يخرج توقف عند الباب قائلًا: الحفاظ على السرية من أهم بنود الإتفاق عند المحامي، وإن أخللت به يومًا سينتظرك السجن.

***

ظل في قمة غضبه حين سمع اسمه يتردد على التلفاز.. أوقف تنفسه، أرهف أذنيه..

سؤال توجهه مقدمة البرنامج إلى ضيفها: يبدو أنك متأثر جداً بالأديب والشاعر "فلان".. حين سمعت قصائدك شعرت كأنني أسمعه، وقد كان لنا شرف اللقاء معه منذ فترة قصيرة، ومن هنا نرسل له تحية وتمنيات بالشفاء العاجل..

ابتسم، قهقه، عادت إلى خلاياه الحياة ومسح وجهه بكفيه وتنفس من الأعماق.. هذه المذيعة أخذت له حقه، لعل نصف حقه، حين ارتبك الشاعر المتربع كالصقر على كرسي أمام الكاميرا، وصار عصفورًا، حتى بلا جناح..

عاد إليه حقه المسلوب..

***

للمنابر أيضًا... مجازر

تأففت، تململت في مكانها ضجرة.. جالت عيونها على الوجوه من حولها.. الكل منشغل بالحوار مع جاره.

ما بال الوقت يبدو ثقيلاً، كأن الزمن توقف حين توقف أرخميدس عن الحياة!.. يا لها من أمسية مملة، مهرجان للشعر يحييه خمسة عشر شاعراً مبدعاً.

هكذا ذُكر في بطاقة الدعوة. أعتقد أنهم هؤلاء هم المتراصون كما التلاميذ في فترة الصباح، يجولون على الوجوه بابتسامة كأنها خرجت لتوّها من ريشة الرسام، لا حياة فيها سوى شكلها..

كانت تعتقد بأنها ستستمتع بتغريدات شعرية تؤنس ذوقها وتستفز قريحتها الشعرية، فإذا بها تجد نفسها في مسرحية ساخرة، أبطالها شعراء أرتقوا بسرعة البرق الى رتبة "شاعر" بعد ارتفاع منسوب لايكات وتعليقات "المجاملة" على ما يكتبونه على صفحاتهم الفايسبوكية..

طال الوقت كثيرًا.. أربعة عشر شاعراً وشاعرة وقفوا إلى المنبر حتى الآن، ولكن أحدهم لم يسجد في معبد القصيدة.. لا كلمة، لا لغة، لا إلقاء..

المميز والحاضر الأكبر في القاعة، هواتف أصدقاء كل شاعر لحظة اعتلائه المنبر.. هذا أمر ضروري، فالفايسبوك ينتظر.

المضحك المبكي أن بعض القصائد التي مرّت كانت عباراتها مسروقة من قصائد لشعراء كبار، فشل ناقلها في إسقاطها على كلماته، فتحولت إلى خليط عجيب متناقض من الأفكار..

والبعض الآخر غرقت قصيدته بلوعة الفراق والاشتياق والعذاب في الحب إلى حد النحيب، حتى يخيل للمستمع أن أبطال قصص الحب استفاقوا من التاريخ وعادوا ليرووا لنا عذاباتهم مستفيدين من هذا المهرجان الباهر..

ومنهم من وجدها فرصة ليتحفنا بمفردات غريزته الجنسية غامزًا من ذكاء الحاضرين ليكتشفوا بلاغته في التعبير.. متلاعباً بأدق التفاصيل حد الإباحية، منطلقاً من النهود، والأرداف، واصلاً إلى السرير.. فيعلو التصفيق معلناً انتصار الغباء.. هللوا له..

رنين العود الذي يرافق الشعراء اختلط مع "كركرة الأراكيل".. ومع الأحاديث المرتفعة بين الحضور الذين نسوا أنهم في حضرة الشعر.. بالإضافة إلى ضجيج عمال المطعم أثناء تلبيتهم للطلبات، ليتحول إلى معزوفة مدمرة للأعصاب...

كانت تتمنى أن تسمع شعراً وأن تحمل معها من الأمسية بصمة شعرية جديدة من شاعر ما..

***

أكثر ما كان يغيظها مقدمة البرنامج، فهي تعرفها جيداً.. ارتكبت مجازر لغوية منذ بداية الأمسية.

تم التعريف عنها بالدكتورة الإعلامية، نسبة للدكتوراه "الفخرية" التي حصلت عليها من دكاكين عُلق على أبوابها رايات الثقافة والأدب والفن، يباع فيها كل ما يتمناه المرء من ألقاب وشهادات تقدير وتكريم دولية وعربية ومحلية "ديلفري".. مع تسهيلات كبيرة بالدفع..

حدثتها نفسها بالإنسحاب، ولكن الفضول أجبرها على البقاء، فهناك مفاجأة أُعلن عنها نهاية الأمسية، وعليها الإنتظار لمشاهدة آخر فصول المسرحية الهزلية.

صوت يعلن عن الشاعر الأخير، مسك الختام..

تنفست الصعداء، حان وقت الفرج.. انشغلت بهاتفها لحين انتهاء وقت الشاعر..

تناهى إلى سمعها كلمات ليست كالكلمات التى قيلت من قبل، رفعت نظرها إليه، رأته منعزلاً تماماً عمّا حوله.. يتلو قصائده بروحه..

ماذا تسمع؟.. إشرأبت حواسها.. إنه شاعر حقيقي بل أكثر من شاعر..

حدقت في عينيه.. يا لها من عينين حالمتين، ترصدان الإحساس من البعيد البعيد في مناجاة لإله الشعر.. صلى للوطن للحب للإنسان..

تلا قصائده غيباً، دون العودة إلى أوراق يستمد منها الجرأة وتجنبه النسيان.

تسلل سحر كلماته إلى أعماقها.. إنه شاعر تتقن كلماته اختراق الروح.. فالقصيدة إن لم تقرأنا ليست بقصيدة..

الضجيج المرتفع في القاعة لم يغضبه، ولم يثنه عن الإبحار في يمِّ قصائده كان وكأنه يقرأ لنفسه..

عندما انتهى لم يرتفع التصفيق فالكل غائب عن السمع..

***

جاءت المفاجأة المنتظرة..

شهادات تقدير لكل الشعراء الذين شاركوا في المهرجان..

عاصفة من التصفيق ارتفعت في القاعة.

طلب من الشعراء أن يتفضلوا للوقوف جميعاً أمام المنبر لأخذ الصور التذكارية.

فاجأتها المفاجأة.. "هل هذه مفاجأة؟.. هذا تزوير ونفاق؟..

بأي حق سيقدم لمن الشعر منهم براء شهادات تقدير، وعلى ماذا؟..

زحمة خانقة وتدافع.. هجم الحضور دفعة واحدة لحصد الصور التذكارية لصفحاتهم الفايسبوكية، إلى جانب الشعراء والشهادات.. فالصفحات تنتظر الحدث الجلل، وارتفعت الأيدي بالهواتف، الكل يصور..

«الشاعر الأخير" لم يقترب، ولم يشارك في "سباق" التصوير، وكأن الأمر لا يعنيه..

كان مثلها، مأخوذًا بما يرى.. عيناه تصورغرابة المشهد بصمت..

أثار دهشتها.. تصرفه غريب.. يبدو أنه من عالم آخر.. قررت أن تقتحم عالمه.

اقتربت منه، صافحته معرّفة عن نفسها:

- ندى أستاذة جامعية في الأدب العربي.

- نسيم، دكتور في طب العيون...

سُعدت بمعرفتك.. أنت شاعر حقيقي.. أهنئ الشعر بك.. إبداع وإلقاء ما رأيته إلا في كبار الشعراء.

أجابها بانفعال ظاهر وكأنه وجد متنفساً ليعبر عن سخطه: أسعدني رأيكِ سيدتي، وكم كنت اتمنى أن يسمعونني.. وأردف: ماذا تُسمّى هذه الأمسيات؟..

أجابت ضاحكة: تسمى مجازر في حق الكلمة والمنبر..

لأول مرة أرى هذا المشهد الغريب..

عجبًا.. وكأنك لم تحضر أمسيات شعرية من قبل..

إنها المرة الأولى.. أعيش مع أهلي في الخارج.. أعشق الشعر وأكتبه منذ الصغر. وقد شاركت في أمسيات كثيرة خارج لبنان مع شعراء من الجالية العربية هناك.

جئت منذ أيام في رحلة عمل إلى الوطن.. أحد اصدقائي دعاني إلى المشاركة في هذه الأمسية. ولا أنكر أن ما رأيته وسمعته الآن كان صادماً.. هل يعقل أن يكون هذا مستوى الشعر في بلدي؟

ليس هذا المشهد بغريب، فهو نسخة عن حالة البلد المزرية.

قطع حديثهما رئيس المنتدى موجهاً كلامه الى الدكتور الشاعر معاتبًا ومتخطياً أسلوب اللياقة:

ما بالك أيها الرجل واقف هكذا؟.. لم تقترب لتشاركنا الصورة التذكارية وتستلم شهادتك؟..ربما نحن دون مستواك!

ليس مهمًا.. الصور لا تعنيني..

كيف ذلك؟.. الصور مهمة جداً لتشاهد الناس من شاركوا بالمهرجان الشعري وترى تكريمهم.. تفضل لاستلام شهادتك ولنأخذ صورة معها..

حدق الشاعر إليه ملياً قائلاً: هل أستطيع أن أسألك سؤالًا؟

طبعًا تفضل..

ما هي الصفة التي تخولك تقديم شهادات؟.. هل أنت شاعر، أم أديب، أم لك صفة ثقافية رسمية؟

أجابه وملامح الغضب في صوته وكلماته: ماذا تقصد بسؤالك، وما شأنك بالأمر، هذا جزاء المعروف.. قدمتك في أمسيتي وجعلت الناس تتعرف إليك..

أجاب الشاعر هازئاً: أشكرك، ولن أنسى فضلك ما حييت، وتقديرًا لجهودك أقدم لك شهادتي مني إليك..

كان عليها أن تتدخل في النقاش الدائر فقالت لرئيس المنتدى: ما تقوم به تزوير، ولو كان لدينا قانون لعاقب أمثالك.

أجاب بشيء من الوقاحة: ما أقوم به عمل ثقافي.. الكثير المجموعات والمنتديات الفايسبوكية يفعلون ذلك.. فهل توقف الأمر عندي أنا؟

***

المؤلفة في سطور:

حنان رحيمي

- صحافية لبنانية- شاعرة وروائية.
- عضو اتحاد الكتاب اللبنانيين.
- عضو مجلس الأدباء والمثقفين العرب.
- مديرة منتدى "بيت النجوم الثقافي".
- صدر لها:
- ديوان "جنى المطر".
- رواية "حياة في منتصف الموت"... طبعة ثانية.
- مجموعة قصصية "بائعة الاعشاب".
- كتب العديد من النقاد والادباء عرب ولبنانيين دراسات نقدية عن كتبها (٢٢ دراس).
- نالت العديد من الجوائز والتكريمات وشهادات التقدير على أعمالها الأدبية.. ومنها جائزة تقدير من مهرجان العنقاء الذهبية الدولي على مجموعتها القصصية "بائعة الاعشاب".

- جائزة القصة القصيرة في مهرجان «همسة» الدولي للآداب والفنون في مصر.
- احتل اسمها إلى جانب عمالقة الأدب من خلال ثلاث دراسات في كتاب: "غربة الثقافة ام ثقافة الغربة" للكاتب والباحث والناقد كامل الدليمي.
- لها عدة قصائد مغناة.
- أحيت العديد من الأمسيات الشعرية.
- لها عشرات المقالات الصحفية في الصحف اللبنانية والعربية والمواقع الالكترونية.
- تم انتاج فيلم "بائعة الاعشاب" من تأليف الكاتبة في جمهورية مصر العربية.

فهرس المحتويات

الإهداء 5

مَحبرة الغُربة.. 7

السَاحِرة 22

التّوْأَم واللعبة 75

الكُرسِي الأخير.. 84

زَهْرة الحياة 92

عيد السماء 101

الانتحاري... والفول 112

بائع روحه 132

للمنابر أيضًا... مجازر 141

المؤلفة في سطور: 148